ذكريات من حياتي



د. عبد العظيم أنيس

ذكريات من حياتي

د. عبد العظيم أنيس

الإهداء

إلى ذكرى شقيقتي سعاد أنيس السيدة الجليلة التي وقفت إلـى جانبي دائما في ظروف حياتي الصعبة.

الفهرس

تقديم

ترددت طويلا عندما طرحت فكرة إصـدار هـذا الكتـاب، وأخذت أقلب الأمر..

هل حياتي تستحق أن يصدر عنها كتاب. وأخيرا وافقت، بعد أن اتفقت على عنوانه "ذكريات من حياتي".

فأنا لا أصدر كتابا شاملا عن حياتي وإنجازاتي بالمعنى الذي يقصده الأوروبيون، تحت اسـم "autobiojaraphy" لأنـي أولا لم أتعرض لكل ظروف ومسيرة حياتي من ناحية، وثانيا لأنني مقتنع أن حياتي هذه وأحداثها لا تستحق كتابا من النوع الذي يصدره الغربيون، فمن أنا حتى أطمع في كتاب من هذا النوع.

والحقيقة أن بعض مادة هذا الكتاب قد سبق نشرها على هيئة مقالات في مجلة الهلال، أو الأهالي أو العربـي "المصـرية والكويتية" أو وردت في كتب صدرت لـي فـي مناسـبات مختلفة، واقتنعت عن صدق أنها قد تكـون مفيـدة للقـارئ لاستخلاص دروس منها، وقد مررت في حيـاتي بظـروف صعبة كثيرة واشتغلت في أعمال متباعدة، سنوات مختلفة من

حياتي، فأنا في الأصل أستاذ رياضيات، قمت بتعليمها في جامعات مصر الثلاث الرئيسية.. جامعة القاهرة – جامعة عين شمس – جامعة الإسكندرية.

كما قمت بتدريسها، في إحدى كليات جامعة لندن سنوات "١٩٥٥ – ١٩٥٦".. ولي أبحاث علمية عديدة، منشورة في المجلات العلمية الدولية ومع ذلك، فقد شاءت الظروف أن أشتغل صحفيا سنوات من حياتي. وأن أتخصص في الشئون العربية، ولقد قضيت سبع سنوات من حياتي معتقلا، بسبب أفكاري السياسية اليسارية، خمس سنوات وثلاثة شهور في معتقلات عبد الناصر.. وسنتين إلا ثلاثة شهور في معتقلات الملك فاروق، وقد قضيت أيام الملك فاروق في معتقلات أبو قير، ثم الهايكستيب ثم الطور على البحر الأحمر.

أما معتقلات عبد الناصر فقد كانت في الأساس في أوردي أبو زعبل، ثم معتقل الواحات، وعلى الرغم من أنني قدمت إلى محكمة الجنايات أيام الملكية، فأصدر قاضي الإحالة آنذاك أنه لا وجه لإقامة الدعوة ضدي إلا أنني ظللت معتقلا حتى جاءت الحكومة الوفدية عام ١٩٥٠ وأفرجت عن كل المعتقلين..

وفي أيام حكم عبد الناصر قدمت مع آخرين لمجلس عسكري برئاسة رئيس سلاح المدفعية آنذاك اللواء هـلال عبـد الله هلال، وكنت أنا والصديق محمود أمين العالم الوحيدين اللذين حكم لهما بالبراءة، وعلى ذلك بقيت في الواحات حتى أفـرج عن جميع المثقفين والمحكوم عليهم بالسجن.

واليوم وأنا أقترب من الثمانين، لست نادما على أي شـيء.. فقد كان همي طوال حياتي الدفاع عن الفقراء والمظلـومين وعن استقلال مصر، وحقها في حياة كريمة وعندما أتأمـل هذا الشريط الطويل من حياتي من طفولتي في حي الأزهر، إلى اليوم، أجدني راضيا عما قمت به، وضحيت مـن أجلـه مهما كانت قسوة الأيام.

وأرجو أن يجد القارئ على صفحات هذا الكتاب مـا يقنعـه بأنه جدير بالقراءة وأن به بعض الدروس المفيدة.

د. عبد العظيم أنيس

الباب الأول

التكوين

ولدت في شهر يوليو عام ١٩٢٣ في حي الأزهر لعائلة لها ثمانية من الأبناء، أربعة ذكور وأربع إناث، وكنت أصغر الذكور وأصغر الإناث باستثناء واحدة، وكان بيتنا يقع على بعد خطوات قليلة من جامع الأزهر، وكان هذا بيت جدي لأبي في حقيقة الأمر، الذي كان يعمل في صناعة البناء ويطلق عليه من قبيل التجاوز لقب "مقاول" فقد كان لديه عدد محدود من المساعدين من بينهم أبي وشقيقاه يساعدونه في بناء بيوت صغيرة أو مساجد متواضعة، وقيل إن جدتي لأبي ساعدت جدي في بناء البيت الذي كنا نسكن فيه بالأزهر.

كانت عائلة أبي جميعا من الحرفيين نزحت أصلا من إحدى قرى الشرقية واستقرت بجوار مسجد ابن بنت رسول الله تلتمس في جواره البركة، فمنهم من كان صاحب محل جزارة أو كان نجارا أو احترف صناعة البناء كما فعل جدي. ولقد تعلم أبي وشقيقاه خبرة صناعة البناء عن أبيهم ثم انفصل كل واحد منهم عن أبيه بعد الزواج، وارتبطت أعمال أبي بوزارة الأوقاف خصوصا لتركيزه على بناء المساجد في المراكز والعواصم المختلفة لمحافظات مصر، بينما تخصص

أعمامي في عمليات ترميم المساجد الأثرية وبالتالي تركزت علاقاتهم بمصلحة الآثار.

وكانت عائلة أمي ذات صلة بصناعة البناء، ومن هنا تم زواج أبي بأمي، فقد كان جدي لأمي مقاولا كبيـرا نسـبيا بمقاييس عصره، وكان بارعا في صناعته إلى درجـة أنـه أطلق عليه لقب "المهندس" وهكذا اكتسبت أسرته هذا اللقـب من بعده. ولقد كسب جدي لأمي كثيرا وأضاع معظـم مـا كسبه في أهواء الشرب والنساء، على عكس جدي لأبي الذي كان شديد الحرص على ماله، فضلا عن أنـه كـان شـديد الإسراف في منزله، وقد تزوج سيدة تركيـة الأصـل هـي جدتي لأمي لا أتذكر شيئا عنها وإن كنت أسمع دائما أنها من فرط سمنتها كانت عاجزة عن المشي في السنوات الأخيـرة من حياتها فكان أولادها ينقلونها على "صينية" عشاء كبيـرة إذا أرادت الانتقال من غرفة إلى أخـرى أو الـذهاب إلـى الحمام.

التعليم والأزهر

وعلى عكس عائلة أبي لم يمتهن أحـد مـن أخـوالي صناعة أبيهم، فقد كان الوضع التقليدي في أسرة أمـي هـو

التوجه نحو التعليم كطريق مضمون للحـراك الاجتمـاعي. وكان التعليم آنذاك في الأسرة يعني الذهاب أولا إلى الأزهر لحفظ القرآن ثم من هناك إلى تجهيزية دار العلوم ثم إلى دار العلوم للعمل بالتدريس في مدارس الحكومة. هكذا فعل خالي زكي المهندس ومن بعده شقيقه كامل، وهكذا فعل من بعدهما شقيقي الأكبر إبراهيم، وكان أخوالي من الهمة في التحصيل والتفوق في الدراسة بحيث أرسل خالي زكـي إلـى بعثـة لبريطانيا عام ١٩١٠ حيث قضى بها أربع سـنوات وعـاد للعمل في تفتيش اللغة العربية كما أرسل شقيقه الأصغر كامل في بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٢٣ وبقي فيها سـبع سـنوات وعاد عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيسا لقسم الفهارس العربيـة بدار الكتب المصرية. وكان لهما شقيق أكبر – من الأم فقط – عرف في الأسرة باسم الشيخ علي الشهداوي درس أيضـا في الأزهر وارتبط بالحزب الوطني حتى أنه أرسل في بعثة على نفقة الحزب إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات كـان فيهـا معاونا لمصطفى كامل ومن بعده عبد العزيز جاويش.

ازدواجية الاسم

إنما أشرت إلى هذا الوضع داخل أسرة أمي بشيء مـن التفصيل لسببين.. أولهما أنني عنـدما ولـدت عـام ١٩٢٣ أرادت أمي أن تسميني باسم "كامل" تيمنا بأخيها كامل الـذي كان على وشك الذهاب إلى بريطانيا عندما ولدت. لكن جدتي لأبي – وكانت صاحبة شخصية قوية – اعترضـت حتـى لا يظن أحد أنني قبطي فاقترح والدي أن يكون اسـمي فـي شهادة الميلاد "عبد العظيم" منعا لأي لبس بينما ينادونني في البيت باسم شقيقها وهكذا نشأت أحمل اسمين: واحـدا فـي شهادة الميلاد ولا يعرفه أحد في العائلة وآخر فـي المنـزل وظل هذا هو الوضع حتى دخلت الجامعـة ممـا أدى إلـى مفارقات طريفة كثيرة في حياتي ولم يختف هذا الازدواج في اسمي من حياتي إلا عندما تخرجت من الجامعة وتزوجـت فأصبح لي اسم واحد هو عبد العظيم.

أما السبب الثاني للاستطراد عن أسرة أمي فهو أن جو التعليم الذي اندمجت فيه أسرة أمي أدى بطبيعة الحال إلـى انحيازات سياسية مختلفة. فقد كـان خـالي الشـيخ علـي الشهداوي من أنصار الحزب الـوطني بينمـا كـان خـالي

الأصغر كامل شديد الحماس للوفد ولسعد زغلول. وكثيرا ما تصارع الاثنان حول شئون السياسة. وفي هذا الجو انحـاز شقيقي الأكبر إبراهيم إلى جانب الوفد، وكان وهو طالب في دار العلوم كثير التردد على بيت الأمة، يلقي القصائد الوطنية أمام سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ولهـذا كـان انحيازنا الأول – وأنا وأشقائي – إلى الوفد بطبيعة الحال.

ولقد بقيت في حي الأزهر حتى سن الخامسة وذهبـت إلى الكتاب بعض الوقت وأنا في الرابعة من العمـر. لكنـي لا أتذكر من هذا إلا أن الكتاب كان بجوار منزلنـا، وكانـت هناك حنفية للمياه أمام الكتاب يتزاحم حولها النـاس لمـلء صفائحهم وأوانيهم وكانت جدتي لأبي تـأتي لزيـارتي فـي الفصل وتعطيني نكلة (مليمين) أشتري بهـا مـن المـدرس بعض الكعك. غير أن جدي بنى منزلا في العباسية الغربيـة قريبا من شارع الملكة نازلي (شارع رمسيس اليوم). وكـان البيت يتكون من دورين وبدروم سكنا نحن في الدور الثـاني وسكن عمي الأكبر في الدور الأول بينما سكن عمي الأصغر في البدروم. لقد تركنا حي الأزهر عام ١٩٢٨ فيمـا أظـن وكانت أمي تقول آنذاك إننا "طلعنا" العباسية بعد موت سـعد

زغلول وكنت أدهش من استخدامها فعل "طلع" في هذا السياق وأتساءل إن كان هذا بمعنى أن العباسية كانت أعلى في أرضها من أرض حي الأزهر، أم أن "الطلوع" هنا بمعنى الصعود في السلم الاجتماعي، ولقد تعودت أسر البورجوازية الصغيرة المقيمة في حي الأزهر على مشروع الانتقال إلى حي العباسية بمجرد أن تسمح الظروف المالية ببناء منزل في هذا الحي الجديد نسبيا. كانت معظم أراضي العباسية صحراوية ولذا كثر البناء فيها في أوائل القرن وفي العشرينات وإليها انتقلت عشرات الأسر، وكانت القاعدة العامة هي أن الأسر الثرية تبني لها فيلات في العباسية الشرقية. أما أسر البورجوازية الصغيرة فكانت تبني في العباسية الغربية أو تستأجر لها مسكنا هناك، ويذكرني هذا التاريخ بما حدث لنجيب محفوظ الذي انتقلت أسرته قبلنا من الأزهر إلى شارع رضوان شكري بالعباسية الغربية. وفي الحقيقة أن شارعنا لا يبعد عن شارع رضوان شكري كثيرا.

ولقد كان انتقالنا إلى المنزل الجديد في العباسية تحولا كبيرا في حياتنا. فقد وجدنا أنفسنا نمشي ونلعب في شوارع واسعة ونظيفة، وبالقرب من منزلنا كانت هناك حدائق غمرة

الجميلة التي كانت تجمع أطفال الحي وتمثل متعة ما بعـدها متعة لهم، وكانت منطقة شارع أحمد سعيد مليئـة بالغيطـان المخصصة لزراعة الخضراوات، وكثيرا ما كانت ترسـلني أمي إلى هناك لشراء السبانخ أو الكرنـب، وكانـت هنـاك أراضي فضاء واسعة نلعب فيها الكرة، وبعد سنوات صـار الاحتفال بالمولد النبوي يجري في صحراء العباسية وأصبح الموكب المحمل بالكسوة الشريفة ينتهي هناك ومع أن صلتنا لم تنته بحي الأزهر لأن جدتي وجدي لأبي ظلا هناك، فـإن هذه الصلة بدأت تفتر تدريجيا خصوصا بعدما ماتت جـدتي فجأة بالسكتة القلبية عام ١٩٢٩ وانتقل جدي للإقامة معنا في العباسية بعد ذلك بسنوات قليلة.

ألم فراق جدتي وأمي

ولقد كان حادث وفاة جدتي صدمة لـي وأول مواجهـة لمعنى الموت وأنا في هذه السن الصغيرة، فقد كنا نحبها حبا جما، وبدا لي اختفاؤها المفاجئ أمرا شديد الصعوبة، وكنا قد تعودنا أن ننتظرها بالساعات عند موقف ترام غمرة حيـث كان الترام رقم ٥ والترام رقم ٢٢ ينتهيان، عندما نعرف أنها ستأتي لزيارتنا، حتى إذا ما نزلت من الترام صـحبناها أنـا

وإخواتي وأولاد عمي في زفة كبيرة تحبنا وتنفحنا بالنقود وأنواع الحلوى المختلفة، وحتى اليوم مازلت أتذكر يوم هذا الحدث الجلل – حدث وفاتها – فقد دق بعض أقاربنا باب منزلنا قبل الفجر بقليل وهرول أبي وأمي بسرعة وهما يهمسان. فلما طلع الصباح أخذنا أخي حسن – نحن الأخوة الثلاثة الصغار – معه وذهبنا مشيا إلى الدراسة عن طريق شارع مصنع الطرابيش وعندما اقتربنا من منزل جدي سمعنا صراخا وعويلا وبكى أخي حسن وقال لنا الخبر الحزين. ولقد كانت الصدمة الثانية والأكبر في حياتي إزاء الموت عندما ماتت أمي عام ١٩٤٠ نتيجة الإصابة بالحمى، وكنت قد انهيت امتحان السنة التوجيهية وكان عمري آنذاك سبعة عشر عاما. وكنت شديد التعلق بأمي وأدت بي هذه الصدمة إلى تحولي إلى إنسان نباتي لا أذوق اللحم لسنوات ولم أستطع أن أخرج من إسار هذه الأزمة إلا قرب تخرجي من الجامعة.

عندما انتقلنا إلى حي العباسية كان من الطبيعي أن يدخلني أهلي مدرسة تناسب سني، ولقد دخلت مدرسة البراموني الأولية وقضيت بها عامين قبل التقدم لامتحان

القبول بالمدرسة الابتدائية، وكانت هذه المرحلـة – مرحلـة المدرسة الأولية – تعيسة بالنسبة لي، ولشرح ذلك ينبغي أن أوضح أنني قد تعرضت وأنا في الثالثـة لحادثـة – ونحـن مازلنا في حي الأزهر – كادت تؤدي بحياتي، فقد وقعت من على سلم منزلنا ونزفت من جرح في الأسنان واللثة، ولابـد أن هذا الجرح قد أهمل أو عولج بالأساليب الشعبية مما أدى إلى حدوث غرغرينة في اللثة العليا، وذهب بي أهلـي إلـى المستشفى الإيطالي بالعباسية وأجريت لي جراحـة عاجلـة أزيل فيها جزء من اللثة وعظمة الأنف وقضيت أيامـا بـين الحياة والموت. فلما عوفيت اتضح لأهلي أنه ترتب على هذه العملية بعض التشويه في الفم، وفي المدرسة الأوليـة كـان الأطفال وبعض المدرسين يعيرونني بهـذا التشـويه، وكـان مدرس اللغة العربية يناديني للإجابة فيقول "قوم يـا أشـرم" إشارة إلى هذا العيب، وأعتقد أن الخجـل والانطـواء فـي شخصيتي آنذاك إنما يعود إلى تلك الظروف، ولقد أدى هـذا إلى كراهيتي للمدرسة وللذهاب إليها وإلى شدة تعلقي بـأمي. وكان ذهابي إلى المدرسة كل يوم مشكلة فقـد كنـت أبكـي وأصرخ إلى أن يحملني الخادم على كتفه إلى باب المدرسـة

وهناك يتلقفني الشيخ ناجي المسئول عن طـابور الصـباح فيأمر الفراش أن يخلع لي حذائي ثم يقوم هو بضربي علـى قدمي بضع خيرزانات لأكون عبرة للأطفال الآخرين، وفـي بعض الأحيان كنت أهرب من المدرسة في فترة بعد الظهر.

معاناة الدراسة الأولى

ذكرت هذه الوقائع لأوضح أنني لم أتعلم الكثيـر فـي المدرسة الأولية، وعندما تقدمت عام ١٩٣١ لامتحان القبول بمدرسة الظاهر الابتدائية لم أنجح في الامتحان بل رسـبت بجدارة، وعندئذ أسرع أخي إبراهيم بتقـديم أوراقـي إلـى مدرسة الحسينية الابتدائية ونجحت بالكاد في امتحان القبـول وهكذا قضيت مرحلة التعليم الابتدائي في الحسينية الابتدائية (وهي قريبة من ميدان الجيش وقد شغلت المبنى بعد الثـورة شركة مصر للمستحضرات الطبية) من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٥ كان التعليم الابتدائي بالمصروفات (عشرة جنيها تدفع على ثلاثة أقساط) إلا للمتفوقين أو نسبة ضـئيلة جـدا يـتم إعفاؤها بناء على تقديم شهادة فقر. ولم أكن من المتفـوقين، ومع أن الأزمة الاقتصادية العالميـة ١٩٢٩ – ١٩٣٢ قـد أصابت أبي بضرر شديد وصل إلى حد الإفلاس إلا أننا لـم

نكن نرغب أن نتقدم بشهادة فقر. ورغم هذه المعانـاة فقـد دفعوا لي المصروفات في السنة الأولى وجزء مـن السـنة الثانية، ثم أعفيت بعد ذلك من المصروفات بمناسـبة شـفاء الملك فؤاد وصدور قرار بإعفاء الخمسة الأوائل من كل سنة من سنوات الدراسة.

ومع بدايتي المتواضعة كان اهتمام أشـقائي بـي فـي المذاكرة قد أوصلني إلى أن أكون من الخمسة الأوائـل فـي نهاية السنة الثانية وظل هذا حالي في السنتين الثالثة والرابعة وتميزت بتفوق خاص في اللغة العربية والحسـاب. وربمـا يعود تفوقي في اللغة العربية إلى طبيعة اهتمامـات الأسـرة التي تخرج العديد من أبنائها من دار العلـوم. أمـا شـغفي بالحساب فلا شك أن لمدرسي آنذاك – الأستاذ المرصـفي – فضلا لا ينسى فيه.

وبشكل ما استطاعت الأسرة أن تجتاز تلـك المرحلـة بصعوبة ودون خسائر فادحة. ذلك أن أخي إبراهيم قد عـين في مدرسة خاصة بمرتب عشرة جنيهات. ومـع أنـه كـان الثاني في دفعة دار العلوم عـام ١٩٣٠ إلا أنـه لـم يعـين بمدارس الوزارة بسبب قرار صدقي باشا وقف التعيينـات،

وكانت شقيقتي الكبرى عائشة تعمل مدرسة بالمدارس الابتدائية وساعدنا ذلك على تدبير أقساط المصروفات لي ولثلاثة من الأشقاء. لكننا اجتزنا هذه المرحلة بتضحيات وآلام نفسية غير قليلة. ولعل تلك المرحلة هي التي لفتت نظري – ولا تزال – لمسألة الفقر في الأوساط الشعبية والظلم الفادح الواقع على الملايين نتيجة الحرمان من التعليم والخسارة التي تصيب الأمة كلها نتيجة هذه الأمية.

الابن القدوة

وينبغي أن أذكر هنا أن سلوك الابن الأكبر في العائلة في طريق التعليم يكون له في العادة أثر غير قليل على الأبناء الأصغر، فهو القدوة والمثل خصوصا إذا كان فارق السن كبيرا. وفي حالتنا كان لتفوق شقيقي الأكبر إبراهيم أكبر الأثر عندي طوال مراحل التعليم. فبعد سنوات قليلة من التدريس أرسل في بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٣٤ وطول المدة التي قضاها بالخارج كان يرسل لي كل فترة خطابات على المدرسة يشجعني فيها على التفوق الدراسي ويطلب مني أن أبعث له بأخباري ومشاكلي. أتذكر مثلا أنني عندما كنت في سنة الشهادة الابتدائية بالمدرسة الحسينية أن دخل

ضابط المدرسة يوما إلى فصلي ونادى اسمي، فلمـا وقفـت ناولني خطابا من إنجلترا، وبالطبع كانت سعادتي وفخـري أمام زملائي فوق الوصف، وقد حدث نفس الشيء أكثر مـن مرة عندما دخلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقضـيت بهـا السنة الأولى والسنة الثانية.

وفي المرحلـة الثانويـة (١٩٣٥ ـ ١٩٤٠) قضـيت بمدرسة فؤاد السنتين الأولى والثانية فلمـا فتحـت مدرسـة فاروق الأول أبوابها عام ١٩٣٧ كنت من ضمن المنقـولين إليها وفيها قضيت السنوات الثلاث الأخيـرة مـن المرحلـة الثانوية ومنها حصلت على الشهادة التوجيهية عـام ١٩٤٠، ولكن يحسن أن أشير إلى حادث مهم في حيـاتي وقـع لـي بمدرسة فؤاد الأول في السنة الأولى من التحاقي بها. ففـي العام الدراسي ١٩٣٦/٣٥ قامت في مصر مظاهرات عارمة تهتف بسقوط وزير خارجية بريطانيا "صمويل هور" بمناسبة تصريح له، ولقد خرجنا من المدرسة في مظاهرة كبيرة إلى شارع العباسية حيث هاجمنا البوليس وضربنا بقسوة، فعـدنا إلى المدرسة وألقينا على قوات البوليس الطوب والأخشـاب. وكان شقيقي محمد في طليعة فرقة قذف الطـوب، وكنـت

أساعده. وفي المساء جاءت قوات من البوليس إلى المنـزل وسألت عني لكنهم وجدوا بعض كتبي على سطح المدرسـة، كنت في الثانية عشرة وأخذت إلى قسم الوايلي حيث قضيت الليل مع ثلاثين آخرين في زنزانة القسـم، وفـي الصـباح أخذونا إلى مبنى محافظة القاهرة حيث عرضنا على النيابـة التي تولت التحقيق معنا، ثم أفرجت عني لصغر سني، كـان هذا الحادث أول مواجهة لي - وأنا مازلت طفلا - لمسـألة السلطة، ولقد بكيت عندما جاءت أمي لزيـارتي فـي قسـم البوليس لكني عندما عدت إلى المدرسة فـي اليـوم التـالي حاولت أن أتظاهر بالشجاعة أمام زملائي. وبالطبع ترك هذا الحادث أثرا عميقا في حياتي بعـد ذلـك، مازلـت أذكـره بتفاصيله كما أني مازلت أذكر جنازة ويصا واصـف التـي مرت عام ١٩٣١ في شارع رمسيس أمام منزلنا وهتافـات شباب الوفد في تلك الجنازة المظاهرة كقولهم "إشكي الظلـم لسعد يا ويصا".

تكويني الثقافي

وفي هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الثانوية - واظبت طوال الصيف على الذهاب إلى دار الكتب في ميـدان بـاب

الخلق للقراءة واستعارة الكتب، فقد كانت ظروفنا المالية لا تسمح بشراء كتب للقراءة العامة وإن كنت قد استفدت من مكتبة أخي إبراهيم بالمنزل التي تركها عند ذهابه إلى بريطانيا ومنها قرأت مقامات الحريري وديوان المتنبي وديوان الحماسة لأبي تمام وكتاب قدامة بن جعفر في نقد النثر وغيرها، ولست أدعي أنني فهمت كل ما قرأت في مكتبة أخي، لكن ذلك كان مقدمة لمواظبتي على الذهاب كل يوم خلال الصيف إلى دار الكتب حيث أظل بها من العاشرة صباحا حتى الواحدة ظهرا، وساعدني على هذا أن خالي الأصغر كان آنذاك رئيسا لقسم الفهارس العربية بينما كان الشاعر أحمد رامي رئيسا لقسم الفهارس الأجنبية في القاعة المقابلة، وكان موظفو قسم الفهارس العربية يرحبون بي ويساعدونني، وفي تلك المرحلة قرأت معظم إنتاج طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازني وتوفيق الحكيم وعبد الله عنان كما قرأت ديوان شوقي ومسرحياته وحافظ إبراهيم والبارودي، وكان العقاد يلفت نظري ويستحوذ على إعجابي بصفة خاصة خصوصا كتابه "سعد زغلول سيرة وتحية" ومطالعاته في الكتب والحياة وتأملاته في الفلسفة وكتابه عن

ابن الرومي، لكن كتب العقاد التي صدرت في مرحلة متأخرة من حياته لم أجد فيها نفسه العميق القديم.

وفي تلك المرحلة أيضا حرصت على قـراءة بعـض الكتب العربية التي تتناول قضايا الفلسفة بصـورة مبسـطة وشغلني على وجه الخصوص سقراط وأفلاطون في الفلسـفة اليونانية وأفكار المعتزلة في الفلسفة الإسلامية كما عرضـها أحمد أمين. وكان لكل هذه القراءات أثرهـا فـي نشـاطاتي بمدرسة فاروق الأول الثانوية، فمع مواظبتي علـى شـراء مجلة "الثقافة" كنت مشتركا في جمعيـة التمثيـل بالمدرسـة وأذكر أني قمت بدور الكاهن "أنويس" في مسرحية كليوباترا لشوقي عندما قدمناها في آخر العام، وكنـت ضـمن هيئـة تحرير مجلة المدرسة "الفجر" واشتركت مـع آخـرين فـي تكوين "الجمعية الرياضية" تحـت إشـراف المـدرس الأول للرياضيات بالمدرسة، وقد شجعني هذا النشاط على مواصلته في مرحلة الجامعة حيث انتخبت رئيسا للجمعيـة الطلابيـة للعلوم الرياضية والطبيعية بكلية العلوم جامعة القاهرة لعـام ٤٣/ ١٩٤٤.

ولقد واجهت مشكلة عسيرة عام ١٩٣٩ إثر حصولي على شهادة الثقافة العامة، إذ كان علي أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية (آداب، علوم، رياضيات) فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة، كما كنت محبا أيضا للرياضيات ومتفوقا فيها، ومع أنه بدا لي أن الجمع بين الرياضيات والفلسفة هو أمر طبيعي لأن أفلاطون كتب على باب أكاديميته "لا يدخلها إلا المشتغلون بالهندسة" إلا أن نظام التعليم في جامعاتنا لم يكن يسمح بذلك، فإما أن التحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو بكلية العلوم لدراسة الرياضيات، ولقد اكتشفت فيما بعد أن الجمع بين الدراستين يتحقق بسهولة في الجامعات الأوروبية والأمريكية حيث تقوم الجامعة على الأقسام كالوحدات الأساسية وليس الكليات وحيث جدول الدراسة من المرونة بحيث يسمح بالجمع بين تخصصات تبدو متباعدة تماما في جامعاتنا، وفي ظني أن إحدى نقاط الضعف الأساسية في جامعاتنا هو هذا الوضع الجامد الذي لا يسمح بالجمع بين الفلسفة والرياضيات معا أو بين الرياضيات والاقتصاد.. وهكذا.

وظللت في هذه الحيرة طوال صيف ١٩٣٩ ثم تصادف حضور أخي إبراهيم من لندن لزيارتنا فقام بإقناعي بدخول كلية العلوم لدراسة الرياضيات وقال آنذاك إن في مقدوري دراسة الفلسفة أو الأدب وحدي بالقراءة والمثابرة في أشهر الصيف بينما أنا أدرس الرياضيات بكلية العلوم، لكن العكس صعب وإن لم يكن مستحيلا، وأذكر أنه قال لي كآخر حجة في جعبته إن الفلسفة والأدب لا يطعمان أحدا!

واقتنعت ودخلت شعبة الرياضيات في السنة التوجيهية ثم قسم الرياضيات في كلية العلوم ولم أندم على ذلك أبدا. وفي مرحلة المراهقة والنزعات الأفلاطونية بدت العلوم الرياضية – البحتة لا التطبيقية – ذات جمال خاص، وإن كان يذهلني حقا هو معنى هذه الحقائق الرياضية في الهندسة والجبر التي بدت وكأنها مستقلة عن أي خبرة. إنه عالم المثل إذن كما كان يقول أفلاطون. واحتضنت بقوة كتاب الرياضي الإنجليزي الكبير هاردي "الرياضة البحتة" كما احتضنت أفكاره المثالية كذلك.

في مايو سنة ١٩٤٤ حصلت على الدرجة الخاصة في الرياضيات بكلية العلوم جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة)

وعينت في أوائل سبتمبر من نفس العام معيدا بكلية العلـوم جامعة الملك فاروق (الإسكندرية) ومع أنـه كانـت هنـاك فرصة لتعييني بجامعة القاهرة إذا انتظرت فإنني آثرت عدم الانتظار لأسباب عديدة في مقدمتها أنني كنت حريصا علـى أن أعيش حياة مستقلة عن الأسرة خصوصا بعد وفاة والدتي وبداية تفكك الأسرة بزواج الكثير من أبنائها.

لكني ذهبت إلى الإسكندرية وأنا أحمـل فـي داخلـي ذكريات علاقات عديدة بالقاهرة لعبت دورا مهما في تحديـد مسار حياتي واهتماماتي بالإسكندرية. لقد ساعدت ظـروف تربيتي وما صادفته الأسرة من مصاعب بسبب الحرص على التعليم على اهتمامي منذ وقت مبكر في شبابي بالعمل العـام وعلى توفر إحساس مبكر بالالتزام قبل الآخرين خصوصـا إذا كانوا من الفئات المضـطهدة والمظلومـة والمطحونـة اجتماعيا. فمثلا عندما جاءت وزارة الوفد إثر أزمة فبرايـر سنة ١٩٤٢ بين الملك والإنجليز – وسـط غـارات جويـة ألمانية وإيطالية على القاهرة والإسكندرية – وكانت قـوات روميل قد وصلت إلى العلمين، تطوعت للالتحاق بمدرسـة الوقاية من الغارات الجوية بالزيتون التي كانت قـد أنشـئت

لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغـارات، وكـان سني آنذاك لا يزيد على ستة عشر عاما، وعندما خصصـت الجمعية التعاونية للبترول خمسة في المائـة مـن أرباحهـا السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبـرتين للأطفـال الفقراء (مبرة الأميرة فادية بالدمرداش ومبرة الأميرة فريـال بالقلعة) سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجاني في المبرة الأولى التي كانت قريبة مـن منزلنـا، وقضـيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة في فصول محو الأمية وفي الطواف على منـازل الأطفـال الفقراء بالمحمدي لبحث الحالة الاجتماعية لأسرة كل طفـل واقتراح معونة مالية لها. وكان يشرف على هذا العمل مـن قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار الممولين فيها.. كامل عبد الرحيم وكيل الخارجية المسـاعد آنـذاك وسـفير مصر في واشنطن بعد ذلك والمستشار عبد المنعم ريـاض الذي كان من قضاة محكمة النقض.

الشباب والخدمة الاجتماعية

ولقد استطعت إقناع بعض زملائي ومـنهم د. محمـد عجلان – بالاشتراك في هذا العمل التطوعي الخيري خـلال فترة الصيف، ونجحت في ذلك مما أسعد المسئولين عن هذه المبرة، خصوصا كامل عبد الرحيم الذي كان يرى في هـذا العمل نقطة تحول فـي توجهـات الشـباب نحـو الخدمـة الاجتماعية. وساعد على توثق صلتي به أنه قد بدأ يكتشـف أن موظفي وزارة الشئون المنتدبين للعمـل بـالمبرة كـانوا يختلسون بعض الأموال المخصصة للإنفاق عليها، فما كـان منه إلا أن كلفني بمسئولية الإنفاق على المبرة يوميا وتقـديم كشف حساب له كل شهر، وعندما تخرجت من كلية العلـوم وعينت معيدا بالإسكندرية أقام كامل عبد الرحيم حفلة شـاي بمنزله بمصر الجديدة لتحيتي وتوديعي وأهداني باسم المبرة أربعة كتب في الرياضيات قيل لي أنها سوف تفيـدني فـي حياتي العلمية الجديدة.

كانت تلك إذن صورة سريعة لاهتماماتي بالعمل العـام – الخدمة الاجتماعية – عندما ذهبت إلى الإسكندرية ولقـد

أشرت إلى ذكريات العلاقات الكثيرة مع زملاء لـي التـي حملتها معي عند ذهابي إلى الإسكندرية، وهنا يجب أن أشير إلى علاقتي بالدكتور عبد المعبود الجبيلي – وزيـر البحـث العلمي في السبعينيات ومدير مؤسسة الطاقة الذرية قبل ذلك – كان عبد المعبود معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلي بعـامين وكان محل انتباه الأنظار بالكلية له لتفوقه العلمـي وذكائـه واهتمامه بالشئون العامة ولقد حاولت اجتذابه للعمل معنا في الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحمـاس الذي توقعته، وأدى بنا هذا إلى حوار طويل حاول فيه إقناعي بأن الخدمة الاجتماعية لن تؤدي إلـى تغييـر حقيقـي فـي الأحوال المتردية للمجتمع المصري وأنها لا تزيد علـى أن تكون مسكنا من المسكنات مثل الأسبرين، وأن الحل الحقيقي الجذري هو الثورة على النظام الملكي القائم، وأن مثل هـذا العمل في حاجة إلى إعداد طويل.

وشيئا فشيئا بدأت أشك في أنـه مـرتبط بشـكل مـا بتنظيمات ماركسية غير معلنة ثم تيقنت مـن صـحة هـذه الشكوك عندما بدأ يتحدث معي ببعض الصراحة ويعيرنـي بعض الكتب الماركسية الإنجليزية مثل "ما هي الاشـتراكية"

لإميل بيرنز وكتاب "الإمبريالية" أعلى مراحـل الرأسـمالية للينين، وملخص لكتاب "رأس المال" لماركس، وكتب أخـرى ترضي اهتماماتي بالفلسفة مثل كتاب "الأيديولوجيا الألمانية" "ضد دهرونج" لماركس وكتاب "المادية والنقـد التجريبـي" للينين ولقد التهمت كل هذه الكتب وتصورت أنني فهمت وإن كنت قد أدركت في فترات لاحقة أن الفهم الحقيقي لا يتحقـق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعي والثقافي الذين ألفت فيهما هذه الكتب، غير أن أهم كتاب أثار اهتمامي آنذاك هو في الحقيقة كتاب إنجلز "جدل الطبيعة" وهو محاولة من المؤلف – على ضوء اكتشاف العلوم الطبيعية في القـرن التاسـع العشـر لاستخلاص قوانين الجدل من تلك الاكتشافات، وهذا الكتـاب بالذات كان محل انبهاري الشديد تلك الفترة من شبابي لأنـه بدا لي أنه يقدم تعميما مثيرا لبعض النتائج العلميـة – فـي الرياضيات والفيزياء والبيولوجي – لم أسمع به مـن قبـل، ولقد لفت نظري على وجه الخصوص كيف أن رجلا مثـل إنجلز يكون على هذا المستوى من المعرفة مـع أنـه غيـر متخصص في العلوم.

وبالطبع فعندما أنظر الآن إلى هذا الكتاب أشعر أن هذا الإعجاب المبكر كان مصدره جهلي بأشياء كثيرة عن العلم، وقد يكون كتابا جيدا بمعنى تاريخي، لكن التطورات العلميـة للقرن العشرين قد تجاوزت نتائجه دون شك، وبعض نتائجه فيما يتعلق بالرياضيات التي تبدو لي اليـوم سـاذجة كـان مصدرها معرفة إنجلز السطحية بهذا العلم.

الثورة هي الحل

تلك كانـت البدايـة إذن.. مناقشـات مسـتمرة مـع عبد المعبود الجبيلي وغيره من الأصدقاء وقراءة متصلة في كتب ماركسية كان يعيرني إياها، وكل هذا انتهى بـي إلـى الاقتناع بوجهة نظره بأنه لا يوجـد حـل لمشـاكل مصـر الاجتماعية غير الثورة، وأن خير ما يفعله شاب مثلـي هـو المشاركة في الإعداد لها. وهكذا ارتبطت بمنظمة "أسـكرا" التي كان الجبيلي أحد قيادتها وعندما تمـت الوحـدة بـين "أسكرا" وبين "الحركة المصرية للتحرر الوطني" عام ١٩٤٧ وتكونت منظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني "حـدتو" أصبحت واحدا من أعضائها.

ولقد كانت مصر – في ظل الأزمة الطاحنة التي كـان يجتازها النظام الملكي الحاكم – تموج بتنظيمات غير قانونية كثيرة من بينها بالطبع تنظيم الضباط الأحرار الـذي كـان يقوده البكباشي جمال عبد الناصر ومع أنني لم أكن على علم بتنظيم الضباط الأحرار فقد كنت أشعر بشـكل غـامض أن هناك شيئا يجري داخل الجيش بين ضباطه الصغار، وكـان مصدر هذا الشعور أنني قابلت آنذاك عـددا مـن الضـباط الصغار ذوي الميول الاشتراكية من بينهم الملازم أول أحمد حمروش، وقد فهمت أنهم يؤدون بعض الخدمات التنظيميـة الثورية مستفيدين من سيارات الجيش.

ولقد كانت هناك حاجة شديدة لـدى منظمـة "أسـكرا" لتكوين مجموعة مصرية قوية من المثقفين بالإسكندرية، لقـد كان لها وجود نشيط ضمن أجانب الإسكندرية، لكن وجودها ضمن المصريين كان قريبا من الصـفر، ولـذا لا شـك أن مجموعة المعيدين بكلية العلوم بالإسكندرية قـد لعبـت دورا رئيسيا في تشكيل مصري في أوساط طلاب الجامعة وشبابها وساعد ذلك على أننا نجحنا في إنشـاء نـاد ثقـافي بحـي الأزاريتا بالإسكندرية كان محل لقـاء الشـباب المتحمسـة

بالشئون العامة، وفي تأسيس رابطة للمعيـدين تـدافع عـن مصالحهم النقابية. كما أن صدور مجلة "الجماهير" الأسبوعية بالقاهرة كان عنصرا مهما في تجنيد العناصـر المتحمسـة لقضية الثورة.

وبطبيعة الحال كانت هناك خواطر من الحيرة والريبـة تلم نتيجة إدراكنا أن هناك تنظيما "لأسـكرا" فـي أوسـاط الأجانب لا نعرف عنه شيئا، ولكن مما خفف هـذا الوضـع علينا في الإسكندرية أننا كنا نعمل بنجاح كبير فـي أوسـاط الطلاب والعمال وكان الانفصال الكامـل بـين التنظيمـين المصري والأجنبي يساعد على أن ننسى هذه المسألة علـى الأقل في السنوات الأولى.

وكانت تلك الفترة (١٩٤٥ ـ ١٩٤٨) تتميـز بجيشـان جماهيري واسع وتحركات شعبية من السخط والاحتجاج ضد الاحتلال البريطاني الرابض في القاهرة والإسكندرية وضـد النظام الملكي الذي كان قد فقد شـعبيته وبالتـالي شـرعيته تماما. وبشكل عام كانت أحوال المعيشة سيئة بالنسبة للغالبية من المطحونين اجتماعيا وكانت الاوبئـة تكتسـح الـبلاد – الكوليرا مثلا – وتفتك بـالألوف، وكـان الـرأي العـام –

وخصوصا الشباب – معاديـا للنظـام الملكـي ولفـاروق خصوصا بالرغم من الجهود الحثيثة التي كان يبذلها الأخوان مصطفى وعلي أمين لتقديم صورة زائفة عن الملك وأسـرته أمام الرأي العام.

صراع مع الإنجليز

وعندما أتأمل اليوم أحداث تلك الفترة تتدافع إلى ذاكرتي أشياء عديدة قد يكون من المفيد أن أشير إلى أهمها باعتباري واحدا من شهودها أو المشاركين فيها، وأولها بطبيعة الحـال اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي قـادت مظـاهرات ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ ضد الاحتلال في ميدان التحريـر وفـي مواجهة ثكنات قصر النيل البريطانية (وكانت محـل مبنـى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل)، مما أدى إلى سـقوط العشرات من الشهداء برصاص قوات الاحتلال. لقد كان هذا العمل الجماهيري المجيد حدثا تاريخيا بمعنى الكلمة، وحتـى اليوم مازال الطلاب في العالم يحتفلـون بهـذا اليـوم (٢١ فبراير) سنويا باعتباره (يوم الطلاب العالمي).

ولأنني كنت في الإسكندرية فلم يكن لي أدنى صلة لا بتشكيل تلك اللجنة ولا بمظاهرات ذلك اليوم المجيد، وإنما ذكرتها هنا لأن هذا الحدث الجليل كان له رد فعل غاضب بالإسكندرية يوم ٥ مارس حيث وقعت المصادمات التي كنت من شهودها بين مواقع البوليس الحربي البريطاني بمحطة الرمل والمنشية وأدت إلى مصرع عدد من جنود الاحتلال.

بعد هذه الأحداث بنحو شهرين أو ثلاثة فيما أذكر وقعت مصادمات أخرى بين طلاب جامعة الإسكندرية وقوات البوليس المصري التي كانت تحاصر مبنى الجامعة في محرم بك حيث كانت توجد كلية العلوم وكلية الحقوق وانتهت بحادث فاجع وهو مقتل ضابط من قوات الشرطة. وجن جنون قوات الأمن فأمطرت الجامعة سيلا من الرصاص واعتقلت كل من خرج من الجامعة سواء من الطلاب أو هيئات التدريس، وظل الحصار مضروبا حول الجامعة إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم – محمد العشماوي – من القاهرة في طائرة وأمر برفع الحصار وخلال فترة الحصار قمت مع مجموعة من معيدي كلية العلوم بكتابة عريضة احتجاج على الحصار وجمعنا توقيعات

العديد من أعضاء هيئات التدريس الذين كانوا معنا في الحصار بما في ذلك توقيع عميد كلية العلوم – الدكتور حسين فوزي – وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطي خيال. واتصلت تليفونيا بأحد الأصدقاء خارج الجامعة وأبلغته نص عريضة الاحتجاج طالبا منه أن يبرق بها إلى صحيفة المعارضة الوفدية (صوت الأمة). وبالفعل صدرت الجريدة في صباح اليوم التالي وفي صفحتها الأولى نص البرقية في برواز كبير موقعا عليه باسمي نيابة عن الموقعين، وكان ظهور اسمي بهذا الشكل مجرد مصادفة إذ أن موظف التلغراف أصر على وجود اسم يتحمل مسئولية هذه البرقية فكان أن أعطاه صديقي اسمي، واستشاط رئيس الوزراء – إسماعيل صدقي – غضبا وكلف وزير التعليم بالتحقيق في الموضوع، وأعتقد أنني كنت على وشك الفصل من الجامعة بسبب هذه العريضة لولا أن الوزير اكتشف أن معيدي العلوم والحقوق من الموقعين فضلا عن عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس، ولم يكن من السهل إذن تحميلي المسئولية.

محاولات فاشلة لاعتقالي!

ولابد أن تلك الواقعة كانت ذات صلة بوضع اسمي في كشوف حملة اعتقالات إسماعيل صدقي التي نفذت فجر ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ واعتقل فيها العديدون من بينهم محمد زكي عبد القادر والدكتور محمد مندور وعبد الرحمن الشـرقاوي وهنري كورييل وآخرون كثيرون، والتي قصد بها في حقيقة الأمر تصفية النشاط الجماهيري البارز الذي كـان اليسـار المصري – بالتعاون مع الطليعة الوفدية – قـد نجـح فـي قيادته. ولم يتمكن بوليس الإسكندرية من اعتقالي لأنهم ذهبوا إلى عنوان كنت قد تركته منذ أسابيع قليلة، وشاء الحظ العاثر للضابط المكلف بالعملية أن يفتش منزل أحد نـواب حـزب السعديين بحثا عني، ورفض أن يعتـرف أن لهـذا المنـزل حصانة برلمانية، وفي اليوم التالي تقدم النائب باستجواب في البرلمان، وكانت العلاقة بين إسماعيل صدقي والسعديين قـد بدأت تتوتر لأسباب أخرى فحمل النواب حملة شديدة علـى الوزارة واضطر رئيس الوزراء إلى أن يلقـي بيانـا فـي البرلمان يشرح فيه ملابسات خطأ الضابط الذي كان مكلفـا

باعتقالي ضمن الحملة، وقدم إسماعيل صدقي اعتذارا للنائب عما حدث وأعلن أن الضابط قد نقل إلى الصعيد عقابا له.

قرأت كل هذا وأنا في مخبئي عند أحد الأصدقاء بالإسكندرية، وقد تردد اسمي كثيرا في كل هذه المساجلات البرلمانية وفي أوائل سبتمبر كانت النيابة قد أفرجت عن جميع من اعتقلوا في حملة يوليو وحفظت التحقيق، فعدت إلى الجامعة وعند خروجي منها ظهرا في أحد الأيام وجدت ضابطا في انتظاري حيث قضيت في قسم محرم بك ليلة شديدة الطرافة، وفي الصباح توجهت إلى النيابة بالمنشية، فما كان من وكيل النيابة إلا أن سألني بضعة أسئلة شكلية وتولى هو الإجابة عليها ثم رجاني أن أذهب إلى الجامعة فور خروجي من مكتبه ولم أفهم السبب في هذا الطلب إلا عندما علمت عند وصولي إلى الكلية بإضراب الطلاب احتجاجا على اعتقالي.

أما الواقعة الثالثة الجديرة بالإشارة هنا فتتعلق بأحداث ٦ و ٥ أبريل سنة ١٩٤٨ المعروفة باسم "إضراب البوليس" لقد كان لضباط البوليس وجنوده مطالب تتعلق بزيادة الرواتب وتحسين ظروف العمل. وقد فشلوا في إقناع رئيس

الوزراء النقراشي الذي كان عنيدا إلى حد الحماقـة، بعدالـة تلك المطالب. وعندئذ دعوا إلى إضراب عام لهم في يـوم ٥ ابريل، وكان لهذه الدعوة إلى الإضراب امتدادات جماهيرية واسعة في الإسكندرية على وجه الخصوص، فقد تزامن هذا الموضوع الخطير - إضراب البوليس - مع مطالب نقابيـة خاصة بالأجور لعمال الغزل والنسيج وغيرهم. كما تـزامن مع موضوع طلابي آخر عرف آنذاك باسـم "قضـية سـعد فريد".

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قبض عليه فـي حـي كرموز وقيل إنه كان يوزع منشورا يساريا عند أبواب شركة الغزل الأهلية. وفي إجراءات حكوميـة عاجلـة ومقصـودة للتخويف حوكم سعد فريد وصدر عليه حكم بالسـجن سـتة أشهر وقد أثار هذا الحكم ثائرة طلاب الجامعة لأنه كان أول حكم يصدر ضد طالب. كل هذا كان قد جرى قبل ٥ ابريـل بشهر على الأقل. لكن غياب البوليس في هذا اليوم المشهود كان فرصة مواتية لمظاهرات عارمة التحم فيها العمال مـع الطلاب مع جنود البوليس في مظاهرات ملأت ميدان المنشية وكان جنود البوليس يرفعون سناكي بنادقهم وعلـى قمتهـا

رغيف عيش إشارة إلى مطالبهم، واتجهت بعض هذه المظاهرات إلى سجن الحضرة لإطلاق سراح سعد فريد ونزلت قوات الجيش بالدبابات والعربات المصفحة إلى الميادين وأطلقت النيران وسقط العديد من القتلى والجرحى، وفي هذا اليوم – أو ربما اليوم التالي ٦ ابريل – وزعت منشورات باسم (حدتو) كان عنوانها "تسقط الملكية وتحيا الجمهورية" وكانت تلك أول مرة توزع فيها مثل هذه المنشورات الثورية بين الجماهير، ولقد أشرت منذ سنوات في مكان آخر إلى هذه الواقعة وذكرت أن كاتب المنشور كان في الحقيقة الشاعر كمال عبد الحليم الذي كان آنذاك المسئول السياسي في (حدتو) لمنطقة الإسكندرية، وإن كاتب هذه السطور هو الذي قام بطبع المنشور في إحدى مطابع محرم بك وتنظيم توزيعه. وكنت آنذاك مسئول الدعاية والتثقيف في نفس لجنة المنطقة.

اعتقالات بالجملة

لقد كان هذا المد الثوري بالإسكندرية والقاهرة هو السبب الحقيقي لقيام حكومة النقراشي بإعلان الأحكام العرفية في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ رغم أنها أخذت من موضوع

فلسطين تكئة لهذا الإعلان، ولعل الدليل الواضح على ذلك أنها لجأت إلى اعتقال كل القوى السياسية المناوئة للنظام بادئة باليسار ثم قوى الطليعة الوفدية ثم الإخوان المسلمين بعد ذلك بشهور. وكنت بالطبع واحدا من المعتقلين الذين أودعوا في معتقل (أبو قير) بالإسكندرية ثم نقلت بعد ذلك بشهور مع آخرين إلى المعتقل المخصص للقاهرة (معتقل الهايكستيب) ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل (الطور) على ساحل البحر الأحمر بالقرب من دير سانت كاترين، وقد تجمع في هذا المكان الذي كان أصلا مخصصا للحجر الصحي الآلاف من اليسار والإخوان المسلمين.

وكان الهدف هو عزلهم تماما عن القاهرة والعالم الخارجي، وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة بين المعتقل وبين السويس هي الباخرة "عايدة" التي كانت تأتي لنا بالمؤن والمأكولات والخطابات كل أسبوعين.

وقد قضيت في تلك المعتقلات نحو عام ونصف مرضت في آخرها ونقلت إلى مستشفى الدمرداش وبقيت فيه من سبتمبر سنة ١٩٤٩ حتى أفرج عني في ١٠ يناير سنة

١٩٥٠ عندما أجريت الانتخابات العامة وعـادت الحكومـة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين.

ومن الضروري الإشارة إلى أن قصة الاعتقالات هـذه قد تزامنت مع الانقسامات العديدة التي وقعت فـي صـفوف اليسار وأدت إلى تضعضع نفـوذه. صـحيح أن الخلافـات وبداية الانقسامات كانت قد بدأت قبل إعلان الأحكام العرفية والاعتقالات، وذلك بانقسام شهدي عطية الشافعي الذي عرف آنذاك بـ "تكتل سليمان" ولكن قضية فلسطين والموقف مـن مشروع التقسيم وبداية اعتقالات ١٥ مايو سنة ١٩٤٨.. كل ذلك خلق مناخا مواتيا لانقسامات أوسع بين مؤيدي مشـروع التقسيم ومعارضيه في صفوف اليسار، وكان من الطبيعي أن يثور في هذا المناخ وضع الأجانب واليهـود داخـل قيـادة (حدتو) وخصوصا هنري كورييل.

ولقد حاولنا في الإسكندرية تجنب انقسـامات القـاهرة ونجحنا في ذلك إلى حد كبير في أول الأمر، لكـن اشـتداد حملة الاعتقالات ثم ذهابنا إلى معتقـل الهاكسـتيب حيـث الانقسامات كانت مكرسة بالفعل أدى بطبيعة الحال إلـى أن أصبحت الإسكندرية جزءا من هذه الانقسامات التي صارت

أمرا واقعا. ولقد حلت الحكومة موضوع الأجانب في مصـر ولم يعد لهذه المشكلة وجود داخل مصر وإن كـان بعـض هؤلاء المتمصرين من اليهود قد حاولوا إنشاء تنظيم لهم في باريس باسم (مجموعة روما) ولا شك أن الانقسـامات قـد أضعفت نفوذ اليسار إلى حد كبير وأصبح من الواضح لكـل ذي عينين أنه إذا قدر لليسار أن يستعيد حيويته ونفوذه فـي يوم من الأيام فإن ذلك سوف يستغرق زمنا طويلا.

عندما أفرج عني في ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عدت إلـى جامعة الإسكندرية كما عاد زملائي الآخرون من المعيـدين لكننا وجدنا تقاعسا من الكلية في تسليمنا العمل مـن جديـد وعدت إلى القاهرة ساعيا لمقابلـة وزيـر التعلـيم الجديـد بالوزارة الوفدية – الدكتور طه حسين – لشرح الأوضاع له ولقد نجحت في ذلك بفضل سكرتيره الخاص (حسين عزت) ومدير مكتبه (سعيد العريان). ولقد كان موقف الوزير رائعا على الرغم من أنه لم يكن يعرفني أصلا.. أنصت باهتمـام كعادته لكل ما قلته ثم أشار إلى حسين عزت أن يطلـب لـه مدير جامعة الإسكندرية تليفونيا، وبقيت في غرفـة حسـين عزت إلى أن استدعاني الوزير مرة أخرى لمقابلته فإذا بـه

يطلب مني أن أذهب إلى الإسكندرية لتسلم عملي، وقد علمت بعد ذلك عندما عدت إلى الإسكندرية أنه شدد علـى مـدير الجامعة بضرورة عودتنا إلى عملنا.

بداية مرحلة جديدة

ولقد كانت عودتي إلى العمل بكلية العلوم بداية لمرحلة جديدة انتهيت فيها – بعد مراجعة فكريـة طويلـة – إلـى ضرورة اتخاذ موقف جديد من النشـاط السياسـي نتيجـة ما استجد من ظروف. لقد تمزقت قوى اليسار إلى كيانـات صغيرة بلا وزن حقيقي، واتضح لي سذاجة تفكيرنا السياسي الذي كان يتوهم أن ثورة بقيادة قـوى اليسـار هـي علـى الأبواب. ولقد كنا محقين في الوصول إلى نتيجـة أن نظـام فاروق قد أصبح كالثمرة العفنة التي على وشك السقوط، لكن الخطأ كان في تصور أن اليسار كان قادرا علـى التصـدي لقيادة التحول ولقد ثبت تاريخيا أن ضباط الجيش بتـوجههم الوطني العام (وإن ضموا عناصر تنتمي إلى اليمين والوسط واليسار) هم الذين كانوا مؤهلين لقيادة معركة التحـول فـي معركة سرعان ما تم التخلص فيهـا مـن عنصـر اليسـار الموجود في القيادة (خالد محيي الدين).

وكل هذا التحليل قد انتهى بي إلى ضرورة السفر إلـى الخارج للحصول على الدكتوراه ما دمت سأبقى في الجامعة، وطلبت من صديق لي كان قد عاد من بريطانيا بعد حصوله على الدكتوراه أن يحجز لي مكانا في إحدى كليات جامعـة لندن، وعندما تم هذا بدأت أستعد علميا للسـفر، إذ مشـاكل العمل السياسي كانت قد أبعدتني عـن اهتمامـاتي العلميـة، وهكذا سافرت في أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى لندن.

ومن المفارقات الغريبة التي وقعت لي قبل سفري بأقل من شهرين أن وزير الداخلية في وزارة الوفد – فؤاد سراج الدين – استدعاني إلى مقابلة في مكتبه بلاظوغلي في يوليـو سنة ١٩٥٠ كما استدعى زميلي د. محمد عجلان، وقد أجرى معنا حوارا سياسيا طويلا حول أفكارنا وبرنامجنا السياسـي تحدثنا معه بصراحة حول قضايا الإصلاح الزراعي وبرنامج النهوض بالريف وحول قضايا التأميمات (خصوصا شـركة قناة السويس) وحقوق الحركة العمالية النقابية..الخ.

وكان رأي الوزير أن الكثير مما ندعو له موجود فـي برنامج الوفد ولم نوافق بالطبع على هذا الرأي. وقد فهمـت السبب الأساسي لدعوتـه عنـدما قـال إن تقـارير القسـم

المخصوص تقول إننا مستمرون في نشاطنا السياسي غير القانوني، ولم يكن هذا صحيحا بالمرة فقد كنت أستعد للسفر إلى لندن ومشغولا بإعادة تأهيل نفسي من الناحية العلمية.

ولقد أوضحت هذا للوزير الذي فوجئ بنبأ استعدادي للسفر إلى لندن. ولقد ذكرته في الرد على تقارير القسم المخصوص الزائفة بما كان يتهم هو به عام ١٩٤٩ من نفس هذه الأجهزة بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال رئيس الوزراء آنذاك النقراشي – ولم يملك الوزير إلا أن يبتسم ويسكت عند سماعه كلامي، ومن طرائف هذا اللقاء أن ضابط القسم المخصوص الذي حضر هذا اللقاء واستمع إلى هجومي على تقارير القسم المخصوص هو ممدوح سالم الذي صار رئيسا للوزراء بعد ذلك في عهد السادات.

قضيت في بريطانيا عامين بالتمام والكمال من سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى سبتمبر سنة ١٩٥٢ لإعداد رسالة الدكتوراه في الإحصاء الرياضي بإحدى كليات جامعة لندن، ومع أني قضيت فيما بعد نحو خمس سنوات أخرى في بريطانيا كمدرس بالجامعة (طوال سنتي ١٩٥٥ – ١٩٥٩) وكأستاذ زائر لإحدى جامعاتها (ثلاث سنوات خلال السبعينات) إلا أن

فترة الدكتوراه كانت نقطة تحول شديدة الأهمية في حيـاتي العلمية وتكويني الثقافي.

وفي العادة يستغرق الإعداد للـدكتوراه فـي الفـروع المعملية للعلوم الطبيعية حوالي أربع سنوات أو أكثر، لكـن في الرياضيات بالذات يصبح من الممكن – ولو أنه نـادر – أن ينتهي الطالب من إعداد رسالته خلال عامين ميلاديين إن ساعده الحظ في موضوع البحـث وأرهـق نفسـه بالعمـل المتواصل، وهو ما حدث معي إذ رغم سـوء حظـي فـي مناسبات عديدة من حياتي فإن الموضوع الذي اقترح علـي بحثه كان أصلا قد بدأ على يد المهندسـين المـدنيين، وقـد وصل إلى أستاذي من خلال أستاذ الهندسة المدنيـة بـنفس الكلية التي التحقت بها الكلية "الإمبراطوريـة" والموضـوع يـتلخص فـي أن مهندسـا استشـاريا بريطانيـا مرموقـا – هيرست – عمل في مصر سنين طويلة وارتـبط اسـمه بدراساته المنشورة عن نهر النيل. كان قد نشر فـي مجلـة الهندسة المدنية الأمريكية بحثا مهما يحاول فيه بناء نظريـة للتخزين القرني (مائة سنة) للمياه في بحيرة فكتوريـا. وقـد صادف هذا البحث العديد من المسائل النظرية العامة في علم

الاحتمالات والإحصاء وكعادة المهندسين فقد حاول هيرست أن يعطي إجابات تقريبية على مسائل من نوع: كم يكون حجم الخزان إذا أريد له ألا ينضب خلال المائة سنة وعلى أساس تصرف مائي متوسط معين كل عام؟ ولقد كان المطلوب مني هو معالجة منهجية لهذه القضايا وإعطاء إجابات دقيقة غير تقريبية عليها، وهذا ما نجحت فيه في نهاية الأمر وأدى بي إلى علاقة خصبة مع هيرست بعد ذلك.

ولقد اقتضى هذا العمل المتواصل صباحا في حضور محاضرات لطلبة الدراسات العليا ولطلبة ما قبل البكالوريوس، وبعد الظهر في الذهاب إلى مكتبة الكلية ومكتبة المتحف العلمي البريطاني، وفي المساء في مواصلة القراءة بالمنزل في كثير من الأحيان، ولا شك أنها كانت مرحلة أساسية في تكويني العلمي.

تكويني الثقافي

غير أن هذه المرحلة لم تكن أساسية في تكويني الرياضي فحسب وإنما كانت أيضا شديدة الأهمية في تكويني الثقافي العام إذ انفتحت فيها على الجوانب الإيجابية العظيمة في الثقافة الغربية عموما وفي الثقافة الإنجليزية خصوصا،

ومن حسن الحظ أن الكلية التي التحقت بها كانت فـي أحـد احياء لندن المشهورة "سوث كينز نجتون" وهو حي المتاحف الكبيرة.. متحـف فكتوريـا وألبـرت، المتحـف العلمـي البريطاني.. متحف التاريخ الطبيعي.. إلخ، كما أن به قاعـة ألبرت الشهيرة والتي كانت تعقد بهـا الحفـلات الموسـيقية الكبيرة والاجتماعات الجماهيرية الضخمة، وكل هـذا كـان يبعد عن غرفتي بالكلية خطوات، ولا شك أنني مدين لقاعـة ألبرت بتذوقي للموسيقى الكلاسـيكية خصوصـا بيتهـوفن وموتسارت وهما أحب موسيقيين إلى قلبي، كما حرصت في عطلات نهاية الأسبوع على التردد على المسرح البريطـاني والاستمتاع بروائعه، ولم أفلح مع ذلك في تـذوق الأوبـرا والاهتمام بها.

كما كانت إقامتي في بريطانيا فرصة للقراءة في الأدب الإنجليزي وحضور ندوات ثقافية واجتماعية وسياسية وزيارة العديد من المدن البريطانية، ورغم هذا البرنامج الحاشد لـم أفقد اهتمامي بتتبع شئون مصر السياسية ومشاكلها وكتبـت بين الحين والآخر مقالات لصحيفة ديلي وركر البريطانيـة باسم (ص. الأيوبي)، كما حرصت على التردد على النـادي

المصري يومي السبت والأحد للالتقاء بزملائي الدارسين لمناقشة الأوضاع في مصر. وقد استطعنا تشكيل اللجنة الوطنية لمتابعة الموقف في مصر والاستجابة له بالعمل الطلابي الصحيح، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة د. حكمت أبو زيد وزيرة الشئون الاجتماعية خلال المرحلة الناصرية ود. فائق فريد نائب وزير الكهرباء الأسبق.

وقد قامت هذه اللجنة بأعمال مهمة عديدة ومنها أنها كانت تصدر نشرة غير دورية عما يجري في مصر سياسيا ونقابيا عرفت باسم "السلام والاستقلال" وكنا نرسلها إلى النقابات والهيئات البريطانية بالبريد، والحقيقة أن هذه النشرة كان يصدرها أصلا د. عبد المعبود الجبيلي في باريس وكان يرسلها لي فنتولى ترجمتها إلى الإنجليزية وطبع أعداد كافية منها وإرسالها إلى النقابات والهيئات.

ولقد نجحت اللجنة الوطنية في عقد مؤتمرات مختلفة للطلاب المصريين في بريطانيا، بالنادي المصري في المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة، وقد تميزت تلك الفترة في مصر بأحداث سياسية واجتماعية مهمة ومتدافعة مما ساعد على اهتمام الطلاب المصريين بحضور تلك

المؤتمرات في لندن. غير أن أهم عمل اضطلعت بـه تلـك اللجنة ونجحت فيه المؤتمر الضـخم الـذي عقـد بالنـادي المصري إثر هجوم القـوات البريطانيـة علـى محافظـة الإسماعيلية وحريق القاهرة فـي ٢٦ ينـاير سـنة ١٩٥٢. وكانت نفوس الطلاب تغلي سخطا على الأوضاع في مصر التي أدت إلى تلك الكارثة الرهيبة، وفي هذا الاجتماع تحدثت طويلا عن المؤامرة التي دبرهـا الاحـتلال مـع الرجعيـة المصرية لإسقاط وزارة الوفد وحريق القاهرة، كما تحـدث غيري من الطلاب في هجوم صريح على النظام الملكي في مصر محملين فاروق وقوات الاحتلال المسئولية الأولى فيما حدث، بل لقد وقف أحد الدارسين (د. عبـد الحميـد أمـين) وطلب بضرورة أن يتنازل الملك فاروق عن العرش كبدايـة لحل الأزمة المستحكمة، ولقد صفق الطـلاب طـويلا لهـذا الاقتراح ولكنه تسبب في إحراج شديد لمدير مكتب البعثات – د. عبد العزيز عتيق – الذي كان زوج شقيقة عبـد الحميـد أمين وهو نجل كاتبنا الكبير أحمد أمين.

ولم يمض على هذا المؤتمر سوى شهور قليلـة حتـى تحول الضباط الأحرار للاستيلاء على السلطة فيمـا عـرف

باسم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وفي هـذه المناسـبة دعونـا لمؤتمر حاشد من جميع مدن بريطانيا لمناقشة الوضع الجديد، وكانت المعلومات المتاحة شحيحة عن طبيعة وتوجهات هذه الحركة الجديدة. إلا أن الحدث الذي دفعنا إلى تأييـد حركـة الجيش بشكل حاسم هو طرد فاروق من مصر وتنازله عـن العرش، فقد كان هذا طلبا من مطالبنا في مؤتمر أواخر يناير سنة ١٩٥٢ وأرسلت باسم اللجنة والمؤتمر برقية تأييد للثورة أذيعت من راديو القاهرة، وازدادت قنـاعتي بصـحة هـذا الموقف عندما أعلنت الجمهورية لاحقا.

قرار بالفصل من الجامعة

بعد وقوع الثورة بشهرين قـدمت رسـالة الـدكتوراه ونجحت في الحصول على الدرجة وعدت إلى مصر متفائلا ببداية مرحلة جديدة، ولم أذهب إلى جامعة الإسكندرية كمـا كان مفروضا وإنما صدر قرار وزاري بنقلي إلى كلية العلوم جامعة القاهرة لأحل محل د. طلبة عويضة الذي كـان قـد أعير إلى العراق وبقيت في قسم الرياضـة البحتـة بالكليـة المدرس الوحيد بين عدد من الأساتذة المسـاعدين وأسـتاذا واحدا أتحمل عبء تدريس ١٤ ساعة أسبوعيا حتى وقعـت

أزمة مارس سنة ١٩٥٤ فانحزت إلى دعوة الديمقراطية مع خالد محيي الدين ومحمد نجيب. وكنت من الموقعين على العريضة التي طالبت بعودة الجيش إلى ثكناته، وكان إن صدر قرار من مجلس قيادة الثورة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصلي مع ٤٢ عضوا من هيئات التدريس بالجامعات معظمهم من الذين اتخذوا هذا الموقف. وكان من بين هؤلاء د. عبد المنعم الشرقاوي. ود. لويس عوض، ومحمود أمين العالم و د. فوزي منصور (من جامعة الإسكندرية) وآخرون كثيرون.

ولقد كان صدور هذا القرار صدمة كبيرة لي فقد كنت قد قضيت عامين في جامعة القاهرة أدرس وأبحث وأكتب مقالات في الأدب والثقافة في جريدة المصري ومجلة روزاليوسف. وفي مايو سنة ١٩٥٤ طلبت إجازة في الصيف للسفر إلى بريطانيا لاستكمال بعض الأبحاث العلمية هناك، وقد وافقت جامعة القاهرة وسافرت فعلا وقضيت الصيف كله في لندن منقطعا لأبحاثي وعدت إلى القاهرة بالفعل يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ودون أن أعرف أن قرارا من مجلس قيادة الثورة قد صدر يوم ٢٤ سبتمبر بفصلي من جامعة

القاهرة. ومن المفارقات الغريبة أن أستاذي في جامعة لندن الذي أشرف على رسالة الدكتوراه استدعاني لمقابلته قبل ترك لندن بأيام وفاجأني أنه قد طلب منه أن يرشح أحد تلاميذه لشغل وظيفة محاضر في الإحصاء بإحدى كليات الجامعة وأنه قد خطر في ذهنه أن يرشحني لشغل هذه الوظيفة، وقد اعتذرت فورا وقلت له إن جامعة القاهرة أولى بجهودي، وبعد هذا اللقاء بأيام عدت فعلا إلى القاهرة لأجد قرار مجلس قيادة الثورة في القاهرة بلا عمل وبالطبع أبرقت إلى أستاذي أخبره أنني قبلت عرضه وأن خطابا في الطريق يشرح لماذا غيرت رأيي ولست أنسى فضل الذين حاولوا مساعدتي في هذه الظروف ومنهم د. عبد المنعم الشافعي الذي كان آنذاك وكيلا لوزارة الشئون، والذي رشحني للعمل في معهد الإحصاء الدولي (فرع بيروت) وبالفعل سافرت إلى بيروت في نوفمبر سنة ١٩٥٤ وقضيت هناك نحو أربعة شهور أدرس فيها لطلاب معهد الإحصاء الدولي. ومن بيروت سافرت إلى بريطانيا في فبراير سنة ١٩٥٥ وبقيت فيها نحو عامين محاضرا بكلية تشلسي للعلوم والتكنولوجيا حتى تأميم قناة السويس في يوليو سنة ١٩٥٦ وعندئذ قررت

أن أقدم استقالتي من عملي لأتفرغ للدفاع عن قرار التـأميم أمام الرأي العام البريطاني. والغريب أن إحسان عبد القدوس – وكنت على صلة به وأبعث لـه مقـالاتي فينشـرها فـي روزاليوسف – كان قد كتب في فبراير سـنة ١٩٥٥ مقـالا طويلا على صفحتين في مجلته عنوانه "الرجل الذي سـرقه الإنجليز" يدعو فيه إلى إعادتي إلى جامعة القاهرة ويطالـب الثورة بتصحيح هذا الخطأ، وكان مقالا شـجاعا فـي تلـك الظروف ثم جاءت مسألة التأميم واستقالتي من عملـي فـي لندن فوضعت القيادة في مصر في موقف حرج، والغريب أن الملحق العسكري في السفارة المصرية بلنـدن طلـب منـي ألا اشترك في العمل الجماهيري في بريطانيا المـدافع عـن التأميم والمناهض للحرب لأنه كان يتصور أنني سأقف فـي هذا العمل معارضا لعبد الناصر باعتبـاري مفصـولا مـن الجامعة لكني رفضت طلبه بالطبع واتخذت الموقـف الـذي أملاه علي ضميري الوطني وهو الدفاع عن التـأميم وعـن عبد الناصر في موقفه من الجزائر وباندونج.

ولقد تعاونت في هـذا النشـاط مـع حركـة تحريـر المستعمرات التي كان الجناح اليساري من نواب حزب العمل

هو القيادة الحقيقية لها (توني بن وآخرون) واشتركت بهـذه الصفة في اجتماعات جماهيرية حاشدة في المدن البريطانيـة المختلفة انتهت إلى اجتماع ميدان "الطرف الأغر" بعد بـدء العدوان الثلاثي على مصر بأيام وبعد هذا الاجتمـاع بأيـام عدت إلى القاهرة عن طريق الخرطوم التي بقيت فيها حتـى حضور أول طائرة من القاهرة فوصلت القاهرة فـي أوائـل ديسمبر لأجد عرضا من خالد محيي الدين بالعمل معه فـي صحيفة المساء. وقبلت العرض وتحولت من أستاذ جـامعي إلى صحفي منقطع للعمل في بلاط صاحبة الجلالة.

مسيرة حياتي الجامعية

على غير ما اعتاد أساتذة الجامعات أتيح لي أن أعمـل في الجامعات الثلاث الأساسية في مصر: جامعـة القـاهرة، جامعة عين شمس، وجامعة الإسكندرية.

لقد تخرجت في كلية العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٤٤، وعندما سارعت جامعة الإسكندرية بتعييني معيدا فـي قسـم الرياضيات كلية العلوم رحبت بهذا التعيـين علـى الفـور، وآثرت البقاء في الإسكندرية، رغم أنه عرض علي بعد ذلك بشهور فكرة تعييني بعلوم القاهرة لكنني اعتذرت.

كنت مبهورا بمدينة الإسكندرية وجوها، بعد أن زرتهـا لأول مرة في صيف ١٩٤٣ مع بعض أقاربي ومكثنا فيهـا شهرا. وكنت أيضا حريصا على أن أعـيش مسـتقلا عـن عائلتي في القاهرة، معتمدا على نفسي في تدبير شئون حياتي بدلا من الاعتماد على شقيقاتي اللائي أخذن مسئولية والدتي في المنزل بعد وفاتها عام ١٩٤٠.

والأهم من ذلك أنني كنت قد بدأت في العام الأخير من دراستي بكلية العلوم بالقاهرة أتصل بعدد من المعيدين بالكية، وعلى رأسهم عبد المعبود الجبيلي وشكري سالم وعبد الرحمن الناصر، الذين بدءوا في تشكيل حلقات ماركسية لمناقشة الأوضاع في مصر، وعلى وجه الخصوص الاحتلال البريطاني، والإصلاح الزراعي، ونقابات العمال وتحسين أوضاعهم، وفي النهاية ضرورة الإعداد للثورة على الأوضاع الراهنة.

وازدادت قناعتي بهذه الأفكار وقرأت عددا من الكتب الماركسية في الاقتصاد والفلسفة والسياسة، وبدأت أنتظم في حضور ندوات دار الأبحاث بشارع نوبار، وعندما عينت معيدا، بالإسكندرية وجدتها فرصة سانحة لبدء حركة اشتراكية مصرية جديدة في أوساط الطلاب الجامعيين والمعيدين، وأكد لي أصدقائي من المعيدين أهمية بقائي بالإسكندرية لفتح جبهة نشاط سياسي مصري فيها، وقد رشحت في سنوات ١٩٤٦، ١٩٤٧ لبعثات أجنبية، لكني لم أذهب لأنني كنت آنذاك منهمكا في العمل السياسي بالإسكندرية وكنت مقتنعا أن الثورة على الأبواب

وأن المساهمة فيها أهم من الحصول على درجات علمية مثل الماجستير والدكتوراه.

محاولة اعتقال

والحقيقة أنني كنت منهمكا في الإسكندرية في العمل السياسي في الفترة ١٩٤٤ ـ ١٩٥٠، وتعرضت لمحاولة اعتقال في يوليو سنة ١٩٤٦ ضمن حملة صدقي المشهورة، لكنني أفلت من الاعتقال وبقيت مختفيا بالإسكندرية حتى أفرج عن جميع المعتقلين بعد شهرين عندما عدت إلى الجامعة.

وفي مايو سنة ١٩٤٨ أصدر النقراشي أمرا باعتقالي ضمن آخرين عديدين، ومع أنني نجحت مرة أخرى في الهرب إلا أنني وقعت في المصيدة عندما ذهبت لحضور أحد الاجتماعات في شقة بسيدي بشر، وكان المقيمون فيها قد اعتقلوا قبلي، وبقيت في معتقل أبو قير عدة شهور ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل الهايكستب (في طريق الإسماعيلية) ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور حيث بقينا فيه حتى

الانتصار الانتخابي للوفد في يناير سنة ١٩٥٠ فأفرجت عنا حكومته الجديدة.

ولست معنيا في هذا المقـال بالحـديث عـن نشـاطي السياسي بالإسكندرية فربما أعود إلى ذلك في مقال آخر. لقد أردت فقط في هذا المقال الإشارة إلى أنني عدت إلى كليـة العلوم بالإسكندرية فور الإفراج عني في أول عـام ١٩٥٠، كما عاد الكثير من المعيدين الذين سـبق اعتقـالهم مثلـي، أو الذين كانوا أفلحوا في الهرب، وأظن أن عددنا كان ثمانية أو تسعة، لكننا أحسسنا أن ثمة تقاعسا بالكلية عـن تسـليمنا العمل من جديد، ويبدو أن الفكرة التي سيطرت على قيـادة الجامعة آنذاك هي نقلنا من الجامعة إلى التعليم العام، وأظـن أن هذه الفكرة كانت تدور في ذهن مـدير الجامعـة آنـذاك صادق جوهر الذي كان معروفا عنه ثقته الوثيقـة بالسـراي الملكية.

لكن طه حسين كان وزيرا للتعليم، وقـد نجحـت فـي مقابلته وشرحت له الوضع، كما نجح آخرون فـي عـرض قضيتنا عليه، فجاء موقفه حاسما بضـرورة عودتنـا إلـى كلياتنا، وهذا ما تم في نهاية المطاف.

بعد الإفراج عني عام ١٩٥٠ كان تفكيري قد تغير عما كنت اعتقدته عند تخرجي بالتفاؤل المبالغ فيه بقـرب قيـام الثورة الاشتراكية، قد انتهى بطبيعة الحال. لقد ظلت ثقتي في أفكاري قائمة. كما هي، لكنني أدركت لأول مرة أن الـزمن سيطول قبل حدوث مثل هذا التحول الذي كنت أحلم به وعلى هذا فلا بأس من بقائي في الجامعة ومن الحصول على شهادة الدكتوراه، وهو شرط البقاء في الجامعة.

في لندن

وهكذا سافرت إلى انجلترا فـي سـبتمبر سـنة ١٩٥٠ والتحقت بالكلية الإمبراطورية بجامعة لندن، ووفقـت فـي الحصول على الدكتوراه في الإحصاء الرياضي في سـبتمبر ١٩٥٢ وعدت إلى مصر بعد قيام ثـورة يوليـو بشـهرين وبالطبع لم أنقطع عن النشاط السياسي وأنا في لندن، فأتذكر أنني أنشأت مع آخرين اللجنة الوطنية المصرية وكـان مـن أعضائها الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبو زيد، وقـد عقدنا اجتماعا ضخما في النادي المصري بلنـدن حضـره مئات من الطلاب المصريين بعد حدوث حريق القاهرة فـي يناير سنة ١٩٥٢ وأعلنا احتجاجنا على الأوضاع في مصـر

ضد الأحكام العرفية، وضد عزل حكومة الوفد، وأتـذكر أن الدكتور عبد الحميد أمين (نجل الكاتب الكبير أحمـد أمـين) وقف في الاجتماع مطالبا بتنازل الملك فاروق عن العرش،

كما أيدت هذه اللجنة (بعد دعوة أخرى للطـلاب فـي يوليو سنة ١٩٥٢) ثورة الضباط خصوصا بعد قيامهم بإسقاط فاروق والإعلان عن نيتهم في الإصلاح الزراعي.

عدت إذن في سبتمبر سنة ١٩٥٣ إلى مصر، وذهبـت إلى الإسكندرية لاستلام العمل، لكـن جامعـة الإسـكندرية لم يكن يبدأ العام الدراسي فيها إلا في أواخر أكتوبر في تلك الأيام، وهكذا أقمت في القاهرة حتـى تبـدأ الدراسـة فـي الإسكندرية عندما حدث لي تحول مفاجئ.

اتصل بي الدكتور طلبة عويضة، وكان المدرس الوحيد في قسم الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة، وأبلغني أن رئيس القسم – الدكتور محمد مرسي أحمد (وزير التعليم العالي بعد ذلك أيام السادات) يريد أن يراني. وكنت أرتـبط معه تاريخيا برباط الود والتقدير منذ أن كنت رئيسا للجمعية الرياضية الطبيعية وأنا طالب في سنة البكالوريوس. وهكـذا ذهبت إلى مقابلته بالكلية بالجيزة فإذا به يفـاجئني بعـرض

تعييني في قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة في مكان طلبة عويضة الذي كان سيعار لجامعة بغداد. وعندما أبـديت لـه شكي في أن توافق جامعة الإسكندرية على ذلك، قـال لـي: المهم أن توافق أنت واترك الباقي لي.

وبالفعل وافقت وأنا لا أصدق أن هذا سوف يتم، لكـن قرار من وزير التعليم بنقلي من جامعـة الإسـكندرية إلـى جامعة القاهرة صدر بعد هذا اللقاء بأربعة أيام، رغم اسـتياء جامعة الإسكندرية ومحاولتها تعطيل هذا النقل بعض الوقت.

أزمة مارس

استلمت عملي إذن مدرسا في قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة في أكتوبر سنة ١٩٥٢، وكانت سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٣، ١٩٥٣ – ١٩٥٤ صعبة للأحداث السياسية التي وقعت فيها، ويكفي أن أذكر محاكمة خميس والبقري في كفر الدوار أمام مجلس عسكري والحكم بإعدامهما وتنفيذ هذا الحكم الجائر، وأن أذكر الصراع الذي جرى بين رئيس الجمهورية محمد نجيب وبقية أعضاء مجلس الثورة، وموقف خالد محيي الدين في هذه المعمعة، وكنا بطبيعة الحال نتعاطف معه، ومحاكمات الضباط التي جرت في تلك السنوات، وما جرى في أزمة مارس ١٩٥٤.

ولقد بدا لنا – نحن أساتذة الجامعة – أن الحل الصحيح إزاء كل هذه الأحداث العاصفة هو في عودة الحياة النيابية وحل مجلس قيادة الثورة وعودة الجيش إلى ثكناته، ووقع عدد منا مذكرة بهذا المعنى لرفعها إلى المسئولين.

وسافرت في أول صيف ١٩٥٤ إلى انجلترا لاستكمال بعض أبحاثي العلمية التي كانت في حاجة إلى حسابات لم

تكن متاحة بالقاهرة، وفي لندن عرض علي أستاذي وظيفـة محاضر "أ" Senior Lecturer في كلية تشيلسـي للعلـوم والتكنولوجيا فاعتذرت لأنني كنت أدرك أن جامعة القـاهرة لن توافق على ذلك. وعندما عدت إلى مصـر فـي أواخـر سبتمبر سنة ١٩٥٤ فوجئت بصدور قرار من مجلس قيـادة الثورة في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصل ٤٣ مـن أسـاتذة الجامعات معظمهم ممن وقعوا على المذكرة إياها في مارس سنة ١٩٥٤، وكان من بين هؤلاء محمود العالم، عبد المنعم الشرقاوي، توفيق الشاري، لويس عوض، فوزي منصـور، وكاتب هذه السطور.

وأبرقت إلى أستاذي الإنجليزي بموافقتي على تعيينـي في لندن، وشرحت له في خطاب خاص ظروف فصلي مـن الجامعة، وقد استطعت السفر إلى بيروت في نـوفمبر سـنة ١٩٥٤ ومكثت بها أربعة شهور محاضرا في فـرع معهـد الإحصاء الدولي ببيروت حتى صدر قرار تعييني في لنـدن في أول سنة ١٩٥٥ فسافرت إلى انجلترا وبدأت عملي هناك بالجامعة.

كنت – منذ عودتي إلى مصر عـام ١٩٥٢ – مواظبـا على نشر مقالاتي الأسبوعية في مجلة روز اليوسف، بل لقد وصل الأمر – عندما التحق فتحي غانم بأخبار اليـوم – أن كلفني الأستاذ إحسان عبد القدوس بتحرير بـاب "أدب" فـي المجلة وواظبت على هذا شهورا عدة.

ولقد حرصت بعد أن استقر بي الحال في لنـدن علـى مراسلة مجلة روز اليوسف بمقالاتي في قضايا الثقافة والعلم والأدب. وكتب إحسان عبد القدوس في مارس سـنة ١٩٥٥ مقاله الشهير (الرجل الذي سرقه الإنجليز) دعـا فيـه إلـى عودتي إلى الجامعة في مصر – ورددت عليه بمقال مـوجز أرحب فيه بهذه العودة إن وافق المسئولين.

التفرغ للواجب الوطني

لكن المسئولين لم يوافقوا بالطبع، وهكذا بقيت في لنـدن حتى يوليو سنة ١٩٥٦ عندما أمم جمال عبد الناصـر قنـاة السويس، وأحسست بطبيعة الحال أن واجبي أن أدافع عـن هذا العمل وان أشرح في اجتماعات النقابات فـي بريطانيـا تاريخ المظالم التي وقعت على شعب مصر عند بنـاء هـذه القناة وسيطرة الأجانب عليها.

وحرصا مني على عدم إحراج الكلية التي أعمل بها قررت الاستقالة من عملي والتفرغ لهذا الواجب الوطني، وبالفعل ذهبت إلى مدن بريطانيا المختلفة حيث كان الطلب شديدا على توضيح وجهة نظر مصر في التأميم، وكانت الاجتماعات هي في الأساس اجتماعات دعت إليها نقابات العمال التي عارضت الحرب ضد مصر، وانتهت الأمور إلى اجتماع الطرف الأغر الشهير الذي خطب فيه نواب حزب العمال كما خطبت فيه شارحا وجهة نظر مصر، ولقد قدر أيامها أن عدد من حضروا هذا الاجتماع الجماهيري يزيد عن الخمسين ألفا.

وهكذا عدت إلى القاهرة من جديد في ديسمبر سنة ١٩٥٦ ولم أكن أدري ماذا سأفعل بالقاهرة، وبعد وصولي بأيام فوجئت باتصال من خالد محيي الدين – وكان قد بدأ في إصدار جريدة المساء – يعرض علي أن أعمل معه في الجريدة.

أصبحت صحفيا

وبطبيعة الحال وافقت لأنه لم يكن هناك عمل آخر، وهكذا أصبحت صحفيا بعد أن كنت مدرسا جامعيا، وبدأت

أكتب في الشئون العربية وساعد علـى ذلـك أن الجريـدة أرسلتني في زيارات عربية متعددة، منها مثلا أنني كنت أول صحفي مصري يدخل قطاع غزة بعد جلاء اليهود عنها فـي يناير سنة ١٩٥٧، كما سافرت إلى الأردن وسوريا ولبنـان والعراق، واجتمعت بعدد من زعماء تلك البلدان، وأدى عملي الصحفي إلى توثيق صلتي بهم.

وقد ظللت في هذا العمل الصحفي إلى يناير سنة ١٩٥٩ حيث جرى اعتقالي مرة أخرى ضمن حملة اعتقـال جميـع اليساريين المشتغلين بالعمل العام، ومن أطرف ذكريات تلك المرحلة (مرحلة العمل في جريدة المساء) أننـي كنـت قـد أرسلت بحثين علميين إلى مجلة بيومترمكـا "Biometrica" البريطانية وأنا في لندن. ولم تتيسر الموافقة علـى نشـرهما ونشرتهما فعلا إلا بعد تركي بريطانيـا والتحـاقي بجريـدة المساء. ولا أعرف كيف أرسلت المجلة العلمية نسـخا مـن بحوثي على جريدة المساء، وطبعا كنت منهمكا آنـذاك فـي شئون الصحافة حتى بدت لي هذه الأبحـاث وكأنـه شـيء غريب علي مع أنني كاتبها منذ سنتين.

والأغرب من هذا أنني فوجئت ذات صباح في جريـدة المساء بمدير جامعة أسيوط – الدكتور سـليمان حـزين – يطرق بابي ورحبت به كثيرا وإن كنـت لـم أدرك سـبب الزيارة، وقال لي إنه كان في زيارة لأستاذي محمد مرسـي أحمد، وكان آنذاك وكيلا لجامعة القاهرة يسـأله أن يرشـح لجامعة أسيوط، أستاذا مساعدا للرياضة البحتـة فـي كليـة العلوم، وأن الدكتور مرسي رشحني!!

وقلت له أنني غارق لأذني في عملي الصحفي بالقاهرة وأنا أفضله طبعا على عملي بأسيوط وعلى أية حال، فقد كان تقديري أن كمال الدين حسين وزير التعليم آنذاك لن يوافـق على عودتي إلى الجامعة.

لكن سليمان حزين كان حريصا على تعييني بأي شكل، وقال لي أن هناك طائرة يومية بين القـاهرة وأسـيوط وأن المطلوب فقط هو أن أذهب إلى أسـيوط يـومين أسـبوعيا أحاضر فيهما في الرياضة البحتة، ولا مانع من أن أسـتمر في عملي بالصحافة بقية أيام الأسبوع، أما موافقة كمال الدين حسين فقد قال حزين، أترك لي هذا الأمر وأنا كفيل بإقناعه.

وبالفعل أعلنت جامعة أسيوط في الصحف عن وظيفـة أستاذ مساعد في الرياضة البحتة، وخوفا من أن أكـون لـم أنبته للإعلان أرسل لي سليمان حزين نسـخة منـه وطلبـا للتعيين لكي أملأه وبالفعل أرسلت طلب التعيين إلى جامعـة أسيوط بعد أن ملأته. وبقيت منتظرا النتيجة.

إلى أن فوجئت بدخول سليمان حزين مرة أخرى إلـى مكتبي في جريدة المساء وهو في أشد حالات الخجل أنه فشل في إقناع كمال الدين حسين بالموافقة على تعيينـي أسـتاذا مساعدا بجامعة أسيوط.

وهكذا بقيت في عملي الصحفي إلى أن جرى اعتقـالي في حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ ضمن مئات من اليسـاريين المصريين، ثم جرى تقديمي إلى مجلس عسـكري برئاسـة اللواء هلال عبد الله هلال مدير سلاح المدفعية، وكان معـي في المحاكمة الدكتور فؤاد مرسي والدكتور إسماعيل صبري والأستاذ محمد سيد أحمد والأستاذ محمود العالم وآخـرون، وربما كان العدد الذي قدم للمحاكمة واحدا وستين.

مع أن هذا المجلس العسكري حكم ببراءتـي إلا أننـي بقيت في معتقل الواحات حتى ٣ ابريل سنة ١٩٦٤ عنـدما

صدر قرار عبد الناصر بالإفراج عن كل اليساريين، لقد بقيت في المعتقل خمس سنوات وثلاثة شهور، خرجت بعدها وأنا لا أعرف إن كنت سوف أعود للعمل للصحافة أم لا.

لكنني فوجئت بصدور قرار جمهوري بتعييني مديرا عاما للبحوث في وزارة الخزانة في يوليو ١٩٦٤، وكان وزير الخزانة آنذاك (الدكتور نزيه ضيف) زميلا لي في الدراسة بالمرحلة الثانوية، وكان هو الذي أبلغ عبد الناصر باحتياجه لي للعمل معه بالوزارة.

ومع أنني لم أكن متحمسا أبدا للعمل بدواوين الحكومية إلا أنني بالطبع شكرت الدكتور نزيه على مبادرته، وبقيت أعمل معه في مكتبه نحو عام ونصف العام إلى أن اتصل بي أستاذي الدكتور محمد مرسي أحمد – وكان آنذاك مديرا لجامعة عين شمس – وأبلغني أن كرسي الرياضة البحتة في علوم عين شمس قد أصبح شاغرا بوفاة شاغله، وأنهم ينوون أن يعلنوا عن هذه الوظيفة في الصحف واقترح أن أتقدم ضمن المتقدمين.

عبد الناصر يوافق على تعييني بالجامعة

وبالفعل تقدمت بطلب لشغل هذا الكرسي، وخوفا من أن أواجه معارضة أجهزة الأمن في عودتي إلـى الجامعـة ـ أرسلت خطابا إلى الأستاذ محمد حسنين هيكـل أشـرح لـه الموقف وأرجوه التدخل حتى لا يتعطل الموضوع مرة أخرى كما حدث في الجامعة أسيوط، وكان الأستاذ هيكل كريما في موقفه، فقد اتصل بالرئيس عبد الناصر فعلا ثم اتصـل بـي هاتفيا وأكد لي موافقة الرئيس عبد الناصر على عودتي إلـى الجامعة إن رأت الجامعة أنها في حاجة لي.

وقد اختارتني اللجنة العلمية لشغل كرسـي الرياضـة البحتة فعلا، وبقيت شهرين بعد ذلك إلى أن أصدر مجلـس جامعة عين شمس قرارا بتعييني.

وهكذا عدت إلى الجامعة في يناير ١٩٦٦ وبقيت فيهـا أدرس وأشرف على رسائل علمية حتى اليوم.

ذكريات الإسكندرية

عشت في الإسكندرية ست سنوات (١٩٤٤ ـ ١٩٥٠) معيدا بكلية العلوم بجامعة الإسكندرية، وذكرياتي السياسية عن تلك الحقبة ـ إنما تعود إلى أكثر من خمسين عاما، ومع أنني اشتهرت في شبابي بقوة الذاكرة، إلا أن وضعي الحالي ـ وقد بلغت السابعة والسبعين ـ لا يسمح لي بالثقة الكاملة في هذه الذاكرة، وقد حاولت أن أستعيد مع بعض الأصدقاء ممن زاملوني في تلك الحقبة بالإسكندرية، بعضا من هذه الذكريات وأحداثها.. ولذلك فإنني أرجو ألا أكون قد أخطأت في بعض التفاصيل.

ولقد أشرت في مقال سابق (هلال ـ ديسمبر ٢٠٠٠) إلى مجموعة المعيدين في كلية العلوم الذين شكلوا حلقة دراسية ماركسية لمناقشة الأوضاع في مصر، خصوصا الاحتلال البريطاني ومشكلة الفقر، وكانت هناك بالقاهرة حلقات أوسع بكلية العلوم كانت لنا نموذجا يحتذى.

وبالطبع سعينا إلى تدعيم صلاتنا بقوى المعارضة الأخرى في أوساط الشباب، وخصوصا شباب الطليعة الوفدية، وإلى حد ما شباب مصر الفتاة من الطلاب، كما سعينا إلى تجنيد أعداد من طلاب الجامعة إلى وجهات نظرنا

وإلى حلقتنا ونجحنا في ذلك نجاحا كبيـرا فأصـبحت لـدينا أعداد غير قليلة في كليات العلوم والحقوق والطـب والآداب في زمن قصير.

وهكذا تشكل تنظيم ماركسي داخل جامعة الإسـكندرية ومع أن اهتمامنا انصرف في مبدأ الأمر إلى تثقيف الأعضاء بالفكر اليساري، مع تجنب العمل السياسي قبـل أن تتكـون مجموعة فكرية يوثق بها ويعتمد على مبادراتها، فإن أحداث البلاد السياسية المتسارعة قد اضطرتنا إلى دخول حلبة العمل السياسية مستعينين في ذلك بصلاتنا القوية بالطليعة الوفديـة التي كانت تتقارب في آرائها السياسية مع آرائنا.

ولقد وقعت أحداث ٢١ فبراير سـنة ١٩٤٦ بالقـاهرة وقادت هذه الأحداث اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي كان الماركسيون القاهريون عمادها، وكان إسماعيل صدقي هـو رئيس الوزراء آنذاك، ولقد أطلق جنود الاحتلال البريطـاني من ثكنات قصر النيل (مكان فندق هيلتون ومبنـى الجامعـة العربية اليوم) النار على المتظاهرين فسقط عدد من الشهداء والجرحى وأدى هذا إلى غليان وطني عارم.

ومع أن الإسكندرية لم تشترك في أحداث ٢١ فبراير، فإن أحداث ٥ مارس بالإسكندرية كانت تجاوبا مع ما حدث بالقاهرة، وإن كانت أكثر عنفا من جانب المتظاهرين الذين أحرقوا مراكز حراسة القوات البريطانية في محطة الرمل وفي أماكن أخرى، ومات في هذه الأحداث عدد من الجنود البريطانيين.

لقد كانت هذه السنوات هي سنوات مفاوضات إسماعيل صدقي مع وزير خارجية بريطانية إيرنست بيفن، التي انتهت في آخر الأمر بما عرف باتفاق صدقي - بيفن، وكانت كل القوى الوطنية في مصر معارضة لمشروع هذا الاتفاق، وكان حزب الوفد بما له من نفوذ واسع في مقدمة المعارضين.

معارضة اتفاق صدقي – بيفن

وأتذكر أنه في شهر أبريل من عام ١٩٤٦ قامت مظاهرة من كليتي العلوم والحقوق بجامعة الإسكندرية (وكانت هاتان الكليتان تشغلان مباني مدرسة العباسية الثانوية التي تقع على ربوة عالية في حي محرم بك) للتعبير عن

معارضة مشروع اتفاق صدقي – بيفن، وكانت قوات الشرطة تقف أسفل الربوة لاعتراض المظاهرة وتفريقها بالقوة إن لزم الأمر.

ثم وقع حادث مفاجئ ذهلنا له جميعا، ذلك أن طالبا من فوق الربوة أطلق النار على أحد ضباط الشرطة فأرداه قتيلا. وحتى اليوم لا نعلم من هو هذا الطالب الذي قام بهذا العمل الاستفزازي الدنيء وإن كانت شكوكنا آنذاك اتجهت إلى شباب مصر الفتاة من الطلاب.

وبالطبع كان رد فعل الشرطة عنيفا، إذ حوصرت مباني الكليتين بالكامل وأطلق الرصاص على مباني الكلية بشكل عشوائي وألقى القبض على أعضاء هيئة التدريس الذين حاولوا الخروج إلى الطريق العام، وظل هذا الحصار مضروبا حول الجامعة من الصباح إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم (محمد العشماوي باشا) من القاهرة بالطائرة وأمر برفع الحصار عن الجامعة التي احتلتها قوات الجيش في الصباح.

وقمنا ونحن محاصرون بكتابة مذكرة احتجاج على هذا الحصار، ونجحنا في الحصول على توقيع عدد كبير من

أعضاء هيئة التدريس على المـذكرة، وكـان فـي مقدمـة الموقعين عميد كلية العلوم الدكتور حسين فوزي وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطي خيال، وإن كان بعض أسـاتذة كلية العلوم قد رفضوا التوقيع.

وكانت المشكلة بعد جمع التوقيعات هي كيفية إرسال المذكرة إلى صحيفة المعارضة الرئيسية: الوفد المصـري. وتفتـق ذهني عن حل، وهـو أن أتصـل تليفونيـا بصـديق لـي بالإسكندرية وأن أملي عليه نص المذكرة التي كانت قصيرة على أي حال، ولما ذهب هذا الصديق إلى مكتب التلغـراف لإرسال البرقية رفض موظف البريد إرسالها وعليها توقيـع عام مثل أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، وصمم على وجود اسم لشخص يمكن مساءلته. ولم يجد هذا الصديق مفرا مـن إعطاء اسمي، وهكذا ظهرت برقية الاحتجاج في اليوم التالي في صحيفة الوفد المصري وعليها التوقيع التـالي: أعضـاء هيئة التدريس (عنهم عبد العظيم أنيس).

وبالطبع هاج صدقي باشا من هـذه البرقيـة وطلـب مـن العشماوي باشا التحقيق في الموضـوع. وظـن الـوزير أن الموقع على هذه البرقية أستاذ بالجامعة وليس معيدا صـغيرا

واستدعاني إلى مكتب مدير الجامعة للتحقيق معي وحضرت في صحبة الدكتور حسن فوزي عميد الكلية، وكان من حسن حظي أنه كان في جيبي نص مـذكرة الاحتجـاج وعليهـا التوقيعات بما في ذلك توقيع عميدي العلوم والحقوق، وعندما قدمتها للوزير وأكدت له أن هذا كان موقفا جماعيا أسقط في يده ولم يستطع معاقبتي.

لكن اسمي ظل محفورا لدى السلطات في انتظـار مناسـبة أخرى للانتقام، وجاءت هذه المناسبة في يوليو عام١٩٤٦ في حملة صدقي المشهورة التي أعتقل فيها العشرات من المثقفين المصريين بما في ذلك محمد مندور وزكـي عبـد القـادر، وكنت بطبيعـة الحـال فـي طليعـة المطلـوب اعتقـالهم بالإسكندرية.

الحظ في صالحي!

لكن الحظ لعب دوره مرة أخرى في مساعدتي، فقـد كنـت كثير التردد على منزل نائب سعدي بمحرم بك بالإسـكندرية لصلة تربطني بأولاده. وظن البوليس أنني أقيم هناك، وهكذا ذهبوا لتفتيش منزله وهم لا يعلمون أنه نائب بالبرلمان، فلما سألهم إن كان لديهم أمر من رئيس البرلمان بذلك أسقط فـي

أيديهم ثم اتصلوا بحكمدار الإسكندرية يسألونه الرأي قبل تفتيش المنزل فأمرهم بتفتيش المنزل مهما كان الأمر.

وبالطبع لم يجدوني ولم يجدوا أي شيء يهمهم ولم يسكت النائب إذ تقدم باستجواب في البرلمان، وكانت العلاقات قد بدأت تسوء بين رئيس الوزراء وحزب السعديين، فاشتعلت جلسة البرلمان هجوما على الحكومة وعلى رئيسها، وألقى صدقي باشا بيانا في البرلمان قال فيه إن التفتيش تم بحثا عن معيد شيوعي، وأن الضابط الذي قام بذلك نقل إلى أسوان عقابا له على هذا الخطأ، وصدرت الصحف بمانشيت عريض في الصفحة الأولى بوقائع الجلسة واسمي بطبيعة الحال موجود في ذلك المانشيت!

وقد قرأت كل ذلك وأنا أقيم عند صديق قاهري يملك فيلا بالإسكندرية ولم أسلم نفسي للشرطة حتى انتهت القضية بالإفراج عن الجميع، فعدنا إلى الجامعة وسألني وكيل النيابة أسئلة شكلية ثم أفرج عني في الحال خصوصا عندما علم بإضراب طلاب كلية العلوم احتجاجا على اعتقالي. وطلب وكيل النيابة مني الذهاب إلى الكلية فورا حتى يراني الجميع وينتهي الموضوع، وهو ما تم بالفعل.

الحدث الثاني المهم الذي جرى بالإسكندرية وأدى إلى اشتعال مد ثوري بها هو موضوع إضراب الشرطة يومي ٥ و ٦ ابريل من عام ١٩٤٨، وبالطبع فهذا الإضراب شمل القاهرة والإسكندرية وبعض المدن الأخرى، وكان الأساس في هذا الإضراب هو المطالبة بزيادة الرواتب. وبالطبع كان لهذا الحدث طعم خاص لأنه لم يسبق له وقوع، ولم تكن قوى التمرد في مصر يد فيه، ولكنه أخذ طعما خاصا بالإسكندرية إذ تحول إلى هبة شعبية شملت كل طوائف الشعب، وخصوصا العمال والطلاب الذين ساندوا المظاهرات التي قامت بها قوات الشرطة بالإسكندرية وانضموا إليها وامتلأت بهم ساحات الميادين العامة وخصوصا ساحة المنشية وكان جنود الشرطة يمضون في مظاهراتهم رافعين بنادقهم إلى السماء وعلى أعلى كل سونكي منها رغيف عيش.

وشعر الشعب أنه بلا حكومة تتحكم في أعماله، حتى أن بعض الظرفاء من أبناء الشعب كانوا يصيحون في الشعراء وهم يضحكون "مافيش حكومة، اللي عايز يشلح النهاردة يقدر".

وقد كان لهذا الهيجـان الشـعبي بالإسـكندرية أسـبابه الخاصة، وأتذكر على وجه الخصوص مسألتين ساهمتا فـي هذا الالتهاب الشعبي أولاهما مطالب العمال بعـدما توقفـت بعض المصانع عن العمل أو استغنت عـن بعـض العمـال أو خفضت أجورهم وبمعنى آخر كان هناك اختمار ثـوري عمالي خصوصا في أوساط عمال مصانع كرموز كـالغزل الأهلية.

ولقد كان الطلبة ومعيدو الجامعة اليسـاريون متحمسـين للدفاع عن مطالب العمال وتعبئة الرأي العام السكندري فـي صفهم، وساعد على ذلك أن زملاءنا في القاهرة كـانوا قـد بدءوا في إصدار صحيفة أسبوعية تسمى "الجمـاهير" وكنـا نحن المعيدين نقوم بتوزيع هذه المجلة علنا في أحياء العمال بالإسكندرية وعلى محطات ترام الرمل، وكان هـذا محـل اندهاش أساتذة الجامعة الذين كانوا يشاهدوننا وهم في الترام ونحن على الأرصفة ننادي على جريدة الجماهير كأي بـائع صحف.

أما المسألة الثانية ذات الصلة فهي ما عرف بالإسكندرية بمسألة سعد فريد.

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قـام بتوزيـع منشـور مساند للعمال في حي كرموز، وقد قبضت عليه الشرطة قبل أحداث ٥ و ٦ إبريل ومعه العديد من نسخ المنشور، ويبدوا أن الحكومة قد رأت فرصة في هذا الموضوع لتأديب طلاب الإسكندرية المشاغبين فأجرت لسعد فريد محاكمـة سـريعة وحكمت عليه المحكمة بستة أشهر سجنا، وقد أثـار الحكـم على سعد فريد ثائرة طلاب الجامعة، فقد كان هذا أول حكـم بالسجن يصدر على طالب بالجامعة لعمل سياسي.

وبدأت إضرابات الطلاب، لكنها لم تحقق نتيجة في مسألة سعد فريد، ثم جاء إضـراب البـوليس وامـتلأت سـاحات الإسكندرية – وخصوصا المنشية – بالجماهير الثائرة، وأثار الطلاب المشتركون في المظاهرات مسألة سعد فريـد مـن جديد، وقررت مجموعة منهم الاتجاه إلـى سـجن الحـدرة لإخراج سعد فريد لكن سلطات سجن الحـدرة أوهمـتهم أن سعد فريد أفرج عنه فعلا.

في هذا الجو الجماهيري الثائر ينبغي أن أذكر واقعتـين هامتين.

الأولى أننا قررنا توزيع منشور باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني يساند المطالب الشعبية سواء مطالب الشرطة أو العمال أو الطلبة، وقد صدرنا هذا المنشور بشعار جديد "تسقط الملكية وتحيا الجمهورية" وكان هذا أول منشور يوزع في مصر تحت هذا الشعار الثوري، وقد أشارت إليه صحيفة الأهرام في اليوم التالي وإن لم تذكر الشعار نفسه واكتفت بالقول إن منشورا ثوريا وزع بالإسكندرية.

وللتاريخ كان الشاعر كمال عبد الحليم هو الذي كتب الصياغة الأولى للمنشور وإن كنت قد عدلت فيه، وقمت بطبع المنشور في مطبعة عادية في محرم بك قبلت طبعه لأنه لا توجد حكومة! وأشرفت على توصيله لمن قاموا بالتوزيع في أحياء الإسكندرية المختلفة.

أما الواقعة الثانية فتتعلق برد حكومة النقراشي على ما يجري بالإسكندرية، فقد أنزلت قوات الجيش وملأت دباباته الميادين العامة وبدأت قواته في إطلاق الرصاص على المتظاهرين فسقط عدد من القتلى، وجرى هذا خصوصا في ميدان المنشية، وكنت من مشاهدي أحداثه.

إعلان الأحكام العرفية!

وفي ظني أن أحداث الإسكندرية الثوريـة كانـت مـن العوامل التي جعلت حكومة النقراشي تنتهز فرصة إرسـال قوات مصرية إلى فلسطين لكي تعلن الأحكام العرفية في ١٥ مايو عام ١٩٤٨ وتعتقل كل القوى النشـيطة سياسـيا مـن اليسار وشباب الوفد، ثم جرى بعد ذلك اعتقال شباب الإخوان المسلمين عندما توقفت الحرب في فلسطين وأعلنت الهدنة.

ومع أنني أفلت بالمصادفة من الاعتقال فـي ١٥ مـايو فإنني اعتقلت في شهر يونيو، وكنت ذاهبا لحضور اجتمـاع في منزل د. شريف حتاتة بالسيوفي، لكنه كان قد تم اعتقاله قبل ذلك بيوم هو والشاعر كمال عبد الحليم، ورتبت الشرطة كمينا داخل المنزل للقبض على كل من يزور المنزل، وهكذا وقعت في كمين ونقلت إلى معتقل أبو قير، وبقيت فيه لمـدة ستة أشهر ثم نقلت مع آخرين من اليساريين وشـباب الوفـد إلى معتقل الهايكستيب في طريق الإسماعيلية، وبعـد عـدة أشهر نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور على البحر الحمر. وقد أضربنا عن الطعام واستمر هذا الإضراب فيما أذكـر لمدة أسبوعين مطالبين بتحسين ظروف معيشتنا، وقـد أدى

هذا الإضراب إلى مرضى بعد أن كان قد انتهى بوعد مـن المسئولين المحليين بتحسين ظروف حياتنا.

وكانت وزارة حسين سري قد عادت للإعداد للانتخابات وكان فؤاد سراج الدين (باشا) وزيرا للزراعـة فـي تلـك الحكومة وتحدث أخي الكبير إبراهيم معه عن طريق بعـض أصدقائه من الوفديين حول ظروفي الصحية وأدى هذا إلـى نقلي إلى معسكر هايكستيب حيـث حضـرت لجنـة طبيـة لفحصي ثم أصدرت قرارها بنقلي إلى مستشفى الـدمرداش للعلاج من التهاب كبدي وبائي. وبقيت في المستشفى قريبـا من منزل أهلي حتى جرت الانتخابات في آخر عام ١٩٤٩، وحصل الوفد على أغلبية مقاعد البرلمان وتشكلت حكومـة الوفد التي أفرجت عن جميع المعتقلين في يناير عام ١٩٥٠.

***

بقيت نقطة واحدة ينبغي توضحيها، فقد ورد في إحـدى كتب الدكتور رفعت السعيد في وصفه لأحداث الإسـكندرية أنني وقفت في ميدان المنشية بين المتظاهرين وألقيت قصيدة هذا مطلعها:

عساكر الجيش والبوليس خطبكمو

خطب البلاد فعادوا من يعاديها

وبالطبع وسط أزيز رصاص دبابات الجيش لم يكن هناك مجال لإلقاء قصائد ولا يحزنون، والحقيقة أن هذه القصـيدة ألقيت في احتفال بمعتقل الطور بعد مرور سنة على إضراب البوليس، وقد حضر جنود وضباط الشرطة بعد في المعتقـل هذا الاحتفال وصفقوا كثيرا للخطب والقصائد التي ألقيت فيه.


ذكريات لندن

عشت في لندن فترتين متقاربتين من حياتي، الفترة الأولى هي التي كنت أعد فيها رسالة الدكتوراه، وهي من سبتمبر ١٩٥٠ حتى سبتمبر ١٩٥٢ وبعدها عدت إلى القاهرة حيث عينت مدرسا بكلية العلوم جامعة القاهرة، قسم الرياضة البحتة.

وجاءت لي فرصة تعييني مدرسا بإحدى كليات جامعة لندن في الفترة من مارس ١٩٥٥ حتى نوفمبر ١٩٥٦، وهكذا عشت الفترة الثانية في لندن حتى جاء تأميم قناة السويس في يونيو سنة ١٩٥٦ فآثرت الاستقالة من عملي في لندن حتى أتفرغ للعمل الجماهيري الذي كان مطلوبا في بريطانيا للدفاع عن وجهة نظر مصر في تأميم القناة.

ولقد فكرت في الفترة الأولى – فترة دراسة الدكتوراه – كيف يمكن خدمة شعب مصر ونحن في الخارج؟ وانتهيت مع زملاء آخرين إلى فكرتين أساسيتين: الأولى أن نعرف الشعب البريطاني بحقيقة ما يجري في مصر قدر الإمكان، ومن وجهة النظر الشعبية، أي من وجهة نظر العمال والفلاحين والطبقة الوسطى وخصوصا شرائحها المتدنية.

والفكرة الثانية هي أن نكون على اتصـال بالأحـداث المهمة التي تجري في مصر وأن نبدي رأينـا فيهـا قـدر الإمكان حتى يشعر المسئولون في مصر أن طلاب البعثـات المصريين يفكرون في مصر ويطالبون أن يأخذ رأيهم فـي الحسبان.

تشكيل لجنة وطنية

وقد وصلت إلى قناعة أن الخطوة الأولى لتحقيق هاتين الفكرتين تتمثل في تشكيل لجنة وطنية تكون بمثابة المحـرك الأول لكل هذا العمل، وهكذا تشكلت اللجنـة الوطنيـة مـن الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبو زيد (التي أصبحت وزيرة الشئون الاجتماعية خلال حكم عبد الناصر) والدكتور محمد عبد الحليم وكاتب هذه السطور.

وكان العمل الأول لنا هو إصدار نشرة غيـر دوريـة توزع على النقابات البريطانية اسمها "السـلام والاسـتقلال" وكان لهذا الاسم قصة أود أن أشرحها، لقد سبقنا فـي هـذا العمل الصديق عبد المعبود الجبيلـي الـذي كـان يـدرس لدكتوراه الدولة في معمل كوري بباريس، وقد أرسـل لـي نسخة من نشرته التي كانت تكتب بالفرنسية طبعـا وتـوزع

على النقابات الفرنسية وتحتوي على المهم من أخبار مصـر التي يهمنا اطلاع الرأي العام الأوروبي عليها.

وأرسل لي عبد المعبود نسخة من نشرته وابتـدأنا فـي أول الأمر بترجمتها إلى الإنجليزية وتوزيعها على النقابـات البريطانية بالبريد، ثم أخذنا بعد ذلك في تغيير مادة نشـرتنا عن نشرة بـاريس وإن احتفظنـا بالاسـم نفسـه "السـلام والاستقلال".

كما قمت عند وقوع أحداث مهمة في مصر بكتابة مقال تفسيري في صحيفة الحزب الشيوعي الإنجليزي – الـديلي وركر باسم مستعار هو "ص الأيوبي" Aouby ولكن لم يكن للجنة الوطنية علاقة بهذا العمل.

أما خدمة الفكرة الثانية التي تمثلت في أن نكون علـى صلة بأحداث مصر وأن نكون رأينا قدر الإمكان معروفا وذا تأثير على هذه الأحداث فقد تمثلت ذلك فـي دعـوة اللجنـة الوطنية طلاب البعثات في مـدن بريطانيـا المختلفـة إلـى الاجتماع في النادي المصري بلندن ومناقشة هذه الأحداث ثم بإرسال رأينا إلى المسئولين في مصر بعد ذلك.

وقد حققت هذه الفكرة نجاحا كبيرا، ونجحنا في تنظيم عدة مؤتمرات في لندن في المناسبات الوطنية المختلفة، في مقدمتها مناسبة قيام الوزارة الوفدية بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحودث الصدام بين قوات البوليس المصري والجيش البريطاني في الإسماعيلية، وبالطبع أعلنا تضامنا مع إلغاء المعاهدة وأدنا العمل البريطاني الوطني في أحداث الإسماعيلية.

أكبر مؤتمرين.

إلا أن أكبر مؤتمرين دعونا إليهما وتوافد الطلاب المصريون من كافة المدن لحضورهما فكانا بمناسبة حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ ثم بمناسبة وقوع الثورة في يوليو ١٩٥٢.

في المؤتمر الأول الذي انعقد في ٢٨ يناير ١٩٥٢ (بعد حريق القاهرة) كان الطلاب في حالة غليان، ومع أننا لم نكن نعرف على وجه اليقين من هم الذين قاموا بعملية الحريق، فإن شكوكنا آنذاك كانت حول دور السراي الملكية في هذه العملية البشعة للتخلص من الوزارة لكننا بالطبع لم نكن نملك أدلة حاسمة، المهم أن هذه الشكوك انعكست في المؤتمر حين

قام أحد طلاب البعثات الدكتور عبد الحميد أمين نجل الكاتب المعروف أحمد أمين وطالب الملك فاروق أن يتنحى عن العرش، واحتبست الأنفاس بعد سماع كلمة عبد الحميد، ومما زاد من الحرج أن وكيل مكتب البعثات (دكتور عبد العزيز عتيق) كان حاضرا المؤتمر، وهو بالمناسبة زوج شقيقة الدكتور عبد الحميد أمين!

المهم انتهى المؤتمر بسماع إقالة وزارة مصطفى النحاس، وبقينا شهورا عدة في حالة غليان وإن كنا لا نعرف ماذا نفعل.

حتى فوجئنا بوقوع ثورة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقد أثار هذا الحدث الكبير حيرتنا في مبدأ الأمر، إذ كيف يستولي الجيش على السلطة والقوات البريطانية موجودة في القنال ما لم يكن هناك تنسيق بينها وبين قادة هذا العمل؟

كان هذا الخاطر الأول لنا، لكننا سمعنا أن هناك ضابطا (أحمر) في قيادة الثورة هو خالد محيي الدين، وهذا يناقض الخاطر الأول.

واتجهت خواطرنا أيضا إلى دور أميريكي في هذه الحركة يوم أذيع أن علي صبري كلف بالاتصال بالسفارة

الأميركية لكننا حزمنا أمرنا في نهاية الأمر بتأييـد الثـورة عندما أعلن عن رحيل الملك وتنازله عن العـرش، وعـن قانون جديد للإصلاح الزراعي، واتخذ مؤتمرنا قرارا بهـذا التأييد وأرسلت به برقية إلى الإذاعة المصرية حيـث أذيـع على الفور.

***

والآن أتحول إلى الفترة الثانية التي عشتها فـي لنـدن مدرسا بإحدى كليات الجامعة.

لقد وصلت إلى لندن لتسلم عملي بالجامعة في فبرايـر (أو مارس) ١٩٥٥ قادما من بيروت، وكنت قـد غـادرت القاهرة في نوفمبر ١٩٥٤ (بعد فصلي من جامعة القـاهرة) لتدريس مقرر في الإحصاء باللغة العربية في فـرع معهـد الإحصاء الدولي ببيروت لمدة ثلاثة شهور.

وقد قبلت القيام بهذا العمل في انتظار قـرار اختيـاري أو اختيار غيري في وظيفة لندن، ولحسن الحظ قررت الكلية اختياري وأرسلت لي خطابا على بيروت بذلك، وكانت فترة بيروت هي الفترة التي كتبت فيها مقالاتي الثلاثة عن الرواية المصرية واتفقت فيها مع دار نشر بيروتية على نشر كتـاب

(في الثقافة المصرية) وهو الكتاب الذي احتوى على مقالاتي ومقالات الصديق محمود أمين العالم في النقد الأدبي، وتكفل الصديق اللبناني محمد دكروب بالإشراف على إخراجه كمـا قام الشهيد حسين مردة بكتابة مقدمة، وقد أثار هذا الكتاب في السنوات الأولى لصدوره ضجة كبيرة في أوساط الشباب.

المهم تفرغت في لندن لعملـي العلمـي مـن إعـداد المحاضرات والتركيز على البحوث بحيث لم يكـن عنـدي وقت للعمل السياسي، وكنت أكتفـي فـي ذلـك بحضـور الاجتماعات السياسية المهمة، وبتوثيـق علاقتـي بحركـة "تحرير المستعمرات" التي كانت بمثابة مظلة واسعة تحطـم جميع أعوان اليسار المعادي للاستعمار بقيادة نائب عمـالي يساري معروف فينر بروكواى، وكان اهتمام هـذه الهيئـة الأساسي بالمستعمرات البريطانية في أفريقيا آنذاك مثل غانا وأوغندا ونيجيريا.. ألخ.

وعند انتهاء عملي بالكلية فـي أواخـر يونيـو ١٩٥٢ قررت الاستجمام أنا والعائلة (زوجتي وابنتـي منـى) فـي جزيرة من جزر المانش تدعى جيرنسي فيما أذكـر ذهبنـا لقضاء شهر يوليو هناك، وتمتعنا بجمـال الطبيعـة، وبجـو

الريف الذي افتقده دائما باعتباري قاهري قح، مثلا أتذكر أن الخضرة والأبقار كانت تملأ مساحة الفضاء أمام الفندق الذي نزلنا فيه.

تأميم القناة

حتى جاء يوم في يوليو قضيناه بطوله خـارج الفنـدق وعندما عدنا في المساء ونزلنا لتناول العشاء كالعادة في قاعة الطعام فوجئنا بالحاضرين وكأن على رؤوسهم الطير، لكـن صديقا هنديا انحنى علي وقال بصوت خافت "ألم تسمع؟ لقـد أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس"، ولم أصدق في مبـدأ الأمر وحسبته يهزل كالعادة، ولكن أكد الخبر وطلب مني أن أسمع B. B. C للتأكد.

وقضيت تلك الليلة دون نوم عمليا، أفكر ماذا أعمل في مثل هذا الوقت، هل أستقيل من عملي مثلا وأتفـرغ للـدفاع عن تأميم القناة؟

وفي الصـباح اتصـلت بسـكرتيرة "حركـة تحريـر المستعمرات" وهي سيدة إنجليزية تمتـاز بالنشـاط والعمـل الجماهيري الواسع، وقالت لي: أين أنت؟ إننا نبحث عنك في كل مكان، لأننا في حاجة إلى مثقف مصري يشرح لأعضاء

النقابات في الاجتماعات التي نعدها في المدن المختلفة وجهة نظر مصر، قلت: إنني سوف أعود إلى لندن بعد يومين.

وكانت هذه المكالمة الهاتفية حاسمة في اتخاذ قـراري بالاستقالة من عملي منعا لإحراج كليتي من ناحية. ولأخـذ كامل حريتي في هذا النشاط الجديد، وأبرقت إلـى الصـديق محمود العالم بقراري الاستقالة في اليوم نفسه الذي أرسـلت فيه خطاب استقالتي لعميد الكلية.

نشاط مكثف دفاعًا عن القناة

وعدت إلى لندن، وبدأت أسافر إلـى مـدن بريطانيـا المختلفة وفق الجـدول الـذي وضـعته "حركـة تحريـر المستعمرات" للحديث في اجتماعات النقابات العمالية.. فـي مانشستر، وشفيلد، وأدنبره، وليفربول، وبرمنجهـام.. إلـخ، وتصادف حضور اثنين من العاملين في الإذاعة المصـرية هما عبد العزيز فهمي ويحيى أبو بكر فقاما بحضور بعـض هذه الاجتماعات وتسجيل ما جرى فيها، خصوصا الكلمـات التي كنت ألقيها دفاعا عن التأميم وشرحا للمظالم التي حاقت بمصر عند بناء القناة.

والغريب في كل هذا النشاط أن السفارة المصرية فـي لندن لم تحاول أن تتصل بي لمساعدتي، وأنا شخصيا لم أكن أعرف أحدا في السفارة، وكنت أخشى من الاتصال بالسفارة باعتباري مفصولا من جامعة القاهرة بقرار لمجلـس قيـادة الثورة، أي أن السفارة سوف تعتبرني – إن اتصـلت بأحـد فيها – معاديا للنظام في القاهرة.

وقد تبينت صحة هذه المخاوف عندما فوجئت وأنا فـي قمة نشاطي هذا للدفاع عن تأميم القناة باتصال هـاتفي مـن الملحق العسكري في السفارة المصرية يرجوني أن أمر عليه في مكتبه.

كان آنذاك قد تحـدد الاجتمـاع الجمـاهيري الكبيـر للبريطانيين في ميدان الطرف الأغر أواخر أكتوبر، وكان قد أعلن عن المتكلمين في هذا الاجتمـاع وكنـت مـنهم فـإذا بالملحق العسكري يطلب مني أن أعتذر عن الاشتراك فـي هذا الاجتماع الكبير! وفيما يبدو خوفا من أن أهاجم النظـام في مصر، ولكني رفضت طلبه وقلت له: إن الاجتماع الذي سوف يبدأ بمظاهرات من ماربل آرش غـدا تنتهـي عنـد

الطرف الأغر، ويضم خمسين ألفا من البريطانيين. فرصـة ذهبية للدفاع عن تأميم القناة فكيف يمكن أن أعتذر عنه!

اجتماع الطرف الأغر

وبالفعل حدث الاجتماع الذي تكلم فيـه نـواب حـزب العمال في ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ كما تكلمت فيه وكان حـزب العمال معارضا للحرب، والغريب أنني بعـد عـودتي إلـى القاهرة في أوائل ديسمبر ١٩٥٥ فوجئت بشخص يسلم علي بحرارة في مترو مصر الجديدة وهو في ملابس مدنية، ولـم أعرف في مبدأ الأمر من هو وسألني: ألا تتذكرني؟ فقلـت: آسف مش واخد بالي.

وإذ به الملحق العسـكري الـذي كـان يطلـب منـي ألا أتحدث في اجتماع الطرف الأغر، وإذ به يعتذر عن طلبه هذا ويقول إنها كانت تعليمات من القاهرة وأنه أدرك خطأها بعد ذلك.

ولقد كان الدكتور مصطفى كمال حلمي – رئيس مجلس الشورى اليوم – من حضور هذا الاجتماع الجماهيري وقـد سعى إلي مهنئا بعد سماع كلمتي، وطبعا فإن صداقتنا قديمـة لأننا خريجو كلية العلوم.

ومن المفارقات المثيرة للضحك أن إحـدى الصـحف البريطانية وأظنها "الديلي تلجراف: - كتبت بعـد اجتمـاع الطرف الأغر مقالا ادعت فيه أن عبد الناصر أرسل واحـدا من مساعديه الإعلاميين للتحدث في الاجتماع، وربما كـان المقصود الأستاذ محمود أنيس الذي كان يعمل في مصـلحة الاستعلامات.

ثم أدركت الصحيفة خطأها واتصل بي أحد محرريهـا تليفونيا وتأكد أنني مدرس بلندن فكتب اعتذارا بعد ذلك عـن هذا الخطأ.

وقررت العودة إلى مصر أنا وأسـرتي، خصوصـا أن الأجهزة البريطانية بدأت تطاردني وتسأل عنـي أصـحاب المنازل التي أقمت بها، ولكن كيف الـذهاب إلـى مصـر، ومطار القاهرة مغلق بسبب الحرب، ولا يوجد طيران مدني بين مصر وبريطانيا؟

لا مفر إذن من الذهاب جوا إلى الخرطوم ومن هنـاك نتدبر الأمر إلى القاهرة.

وبالفعل وصلنا إلى الخرطوم وبقينا فيها مع عـدد مـن الأصدقاء والأقارب حتى جاءت أول طائرة مصرية أخـذتنا إلى القاهرة في أوائل ديسمبر ١٩٥٦.



ذكريات المساء

ليس هذا عنوانا رومانسيا، وإنما أشير هنا إلى ذكريـاتي في صحيفة "المساء" المصرية عندما عدت من بريطانيا أثـر العدوان الثلاثي على مصر في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ بعـد أن استقلت من عملي في لندن، اتصل بي الأستاذ خالد محيي الدين عارضا علي أن أعمل معه في صحيفة المساء، فقبلت لأنه لم يكن أمامي من عمل آخر.

ولابد أنه في تخميني قد استأذن عبد الناصـر قبـل أن يتصل بي وأن عبد الناصر وافق على ذلك. واخترت أن أهتم بالشئون العربية في صحيفة المساء.

كانت تلك الفترة من تاريخ مصر مشرقة ومليئة بالآمال. لقد هزم العدوان الثلاثي واضطرت القوات الإسرائيلية إلـى الانسحاب من سيناء ومن قطاع غزة بعد أن دمـرت خـط السكة الحديد الذي يربط مصر بغزة، كما انسحبت القـوات البريطانية والفرنسية من منطقة القنـال، ولا شـك فـي أن الولايات المتحدة قد ضغطت على حلفاء العـدوان الثلاثـي للانسحاب بالإضافة إلى تهديد خروشوف بالتدخل العسـكري إن لم يتم الانسحاب.

وكان موقف الولايات المتحدة هذا – وايزنهاور بالذات – يعود إلى أن بريطانيا وفرنسا أخفتا عن واشـنطن تفاصـيل مشروع العدوان الذي تم التوقيع عليه سرا في معاهدة "يفر". ولم يغفر إيزنهاور لإيدن هذا العمل وكان التهديد بزعزعـة الجنيه الإسترليني في الأسواق الدولية كافيـا. لا للانسـحاب فحسب بل لإخراج إيدن من زعامة حزب المحـافظين بعـد ذلك، وبالطبع كانت أمام أمريكا فرصة ذهبية لكي تحل مكان القوى الاستعمارية الهرمة (بريطانيا وفرنسا) فـي الشـرق الأوسط، وهكذا بدأ تقديم (مشروع إيزنهاور) لملء الفراغ في المنطقة كما يزعمون، بعد الانسحاب مباشرة.

وبالطبع كان عبد الناصـر يـدرك أهـداف مشـروع ايزنهاور، لكنه في ظني كان في حرج للدور الـذي لعبتـه أمريكا في تحقيق الانسحاب، ولذلك آثر أن تبدأ الحملة علـى مشروع إيزنهاور في صورة خطابات من الرأي العام إلـى جريدة الشعب (وكان الأستاذ لطفي واكد رئيسـا لتحريرهـا آنذاك) تدين المشروع. وبالطبع كانت جريدة المسـاء ضـد المشروع وكتبت فيها مقالات عديدة تدينه وتفضح مراميـه.

لكن هذا لم يكن كافيا إذ أراد هـو أن تعـرف واشـنطن أن الشعب كله ضد المشروع.

وهكذا اتصل بي الأستاذ لطفي واكد ذات صباح وطلـب أن أزوره في مكتبه بصحيفة الشعب، فلما ذهبت وجدت علي صبري حاضرا الجلسة ولو أنه انصرف قبل انتهاء اللقـاء. وقال لي لطفي واكد: إنه يريد من قوى اليسـار أن تغـرق جريدة الشعب بخطابات ضد مشروع إيزنهاور وأنه يطلـب مني المعونة في هذا، وبالفعل اتصلت بالعديد من قوى اليسار راجيا منهم إرسال خطابات إلى جريدة الشعب بإدانة مشروع إيزنهاور. ونشرت الجريدة بالفعل العديد من الخطابات الأمر الذي لعب دورا في قتل المشروع في المهد.

انتصارات الحركة الوطنية العربية

وبالطبع لم تسكت واشنطن، خصوصا بعـد أن تعـددت انتصارات الحركة الوطنية العربية، فطرد الجنـرال جلـوب من الأردن وحل محله علي أبو نوار كقائد للجيش وتحركت الأحزاب الوطنية في الأردن لتحقيق حكم وطنـي برئاسـة سليمان النابلسي حيث كان الكثير مـن زعمـاء الأحـزاب

الوطنية وزراء في تلك الحكومة ومنهم على سـبيل المثـال شفيق أرشيدات للتعليم وعبد الحليم النمر للداخلية.. إلخ.

على أن هذا التحول في الأردن لم يظل طويلا إذ جـرى انقلاب وزاري آخر وإن لم يكن انقلابا كاملا، إذ ظل سليمان النابلسي وزيرا للخارجية بعد أن كان رئيسا للوزراء وظـل عدد من وزرائه في مواقعهم، بينمـا تـولى الرئاسـة أحـد الموالين للملك حسين.

كانت هذه بداية التهديد التركي بغزو سوريا من الشمال، وكان التهديد جديا ولعبت الأحزاب المعادية للقومية العربيـة دورا في اهتزاز الأوضاع في سوريا باغتيال العقيد عـدنان الذي كان يشغل منصبا حساسا في الجـيش السـوري فيمـا أتذكر، كل هذا كان في سبتمبر سنة ١٩٥٧.

واختار عبد الناصر أن يرسـل وحـدات مـن الجـيش المصري إلى اللاذقية واستقبلت تلك القوات اسـتقبالا يفـوق الوصف في سوريا، وكانت هذه هي الظروف التي سـافرت فيها إلى سوريا موفدا من صحيفة المساء.

ومع أهمية البحث عن الوضع في سوريا بعـد وصـول القوات المصرية، إلا أنني أدركت أهمية زيارة عمان أيضـا

حيث كان الصراع على أشده بين الأحـزاب الوطنيـة فـي الأردن ورجال الملك حسين. وهكذا سـافرت إلـى عمـان لقضاء ثلاثة أيام فقط ونزلنا في فندق نادي عمان وكان يقيم به عدد من الوزراء الأردنيين الذين يعيشون أصـلا خـارج العاصمة، وهكذا توثقت صلتي بعدد منهم من بيـنهم شـفيق أرشيدات وعبد الحليم النابلسي وسـعيت لمقابلـة سـلميان النابلسي وفهم الأوضاع منـه فوجـدت منـه عتابـا علـى عبد الناصر لأنه يشتد في رأيه في معاملة الملك حسين. لكن الجو كان مكهربا خصوصا أن الأحزاب الوطنية قد قـررت عقد مؤتمرها في نابلس وكان الملك حسين مصـمما علـى إفشال المؤتمر ومنع المقيمين من أعضائه في عمـان مـن السفر إلى نابلس، إذ أنه حاصـر مخـارج عمـان بقـوات الشرطة.

وفي هذه الظروف حدث أغرب مـا يمكـن أن يحـدث لصحفي خالي الذهن عن العمليات السرية. فقد اتصـل بـي الملحق العسكري المصري في الفندق وطلب منـي أن أمـر عليه في مكتبه فلما ذهبت إذ به يطلب مني أن أسـافر إلـى نابلس فورا ومعي اثنان من قيادة الحركة الوطنية في سيارة

من سيارات السفارة، ولما سألته كيف ستسمح الشرطة الأردنية بخروجنا من عمان أجاب ببساطة: لا تحمل هم، وطلبت منه أن أعود إلى الفندق لإحضار بعض الملابس معي إلى نابلس، ولكنه رفض ثم سألني فجأة: هل تجيد إطلاق الرصاص؟ فضحكت وقلت له إنني لم أمسك مسدسا طوال حياتي، فقال: إذن يذهب معك فاروق القاضي لأنه يجيد إطلاق النار.

السفر إلى نابلس

وهكذا سافرنا في ظلام الليل إلى القدس ومعنا اثنان من قادة الأحزاب: فائق وراد الذي أصبح أمينا عاما للحزب الشيوعي الأردني بعد وفاة فؤاد نصار، والآخر هو عيسى مدانات أحد قيادات الحزب، وفي ظلام الليل لم أعرف من ركب معنا السيارة أنا وفاروق القاضي، ولكن خطر في بالي أنهما رجلان في ملابس شبه نسائية، وبالفعل عندما وصلت السيارة إلى نقطة التفتيش في مخارج عمان أبرزنا للشرطي جواز سفري وجواز سفر فاروق القاضي فأشار إلينا بالذهاب. ولم أصدق أننا بهذه السهولة اخترقنا نقاط حصار الملك حسين، وكان المطلوب منا هو توصيل الرجلين إلى

منزل القنصل المصري في القدس، ووصلنا بالفعل إلى منزله حوالي الساعة الثالثة صباحا فوجدناه في انتظارنا ورحب بنا غاية الترحيب ونمنا بضع ساعات في غرفة الجلوس، ثم قمت أنا وفاروق القاضي بالسفر وحدنا إلى نابلس مارين برام الله حيث استرحنا في منزل كمال ناصر (الذي اغتاله الإسرائيليون في بيروت بعد ذلك بسنين طويلة) وتناولنا الغداء في منزله ثم ودعناه إلى نابلس التي وصلناها في المساء، ووجدت أن المنظمين للمؤتمر قد رتبوا لي النزول في منزل قدري طوقان، فاتجهت من فوري إلى قاعة المؤتمر في نابلس حيث حضرت جلسته الختامية، وقابلت د. عبد الرحمن شقير زعيم الجبهة الوطنية آنذاك وفؤاد نصار أمين عام الحزب الشيوعي الأردني وفهمي السلفيتي وبقية قيادة الأحزاب الأردنية، وربما يتيح لي الزمن أن أتحدث عن متعة الإقامة في بيت طوقان والأحاديث الجميلة التي دارت بيني وبين قدري طوقان والشاعرة فدوى طوقان وحافظ طوقان، وكيف ظللنا نتحاور في الأمور المختلفة حتى الصباح تقريبا.

وكان من الواضح لي أن الملك حسين يستعد لضربة ردا على قرارات الأحزاب الوطنية، وبالفعل فلم أكد أعود إلـى عمان وأنزل في نادي عمان حتى أعلن الملك حسين الأحكام العرفية وغير الوزارة بوزارة من الموالين له، ومنع الخروج من نادي عمان بالأمر العسكري.. وبذلت السفارة المصـرية جهودها للتصريح لي بمغادرة عمان، وبالفعل غادرت عمان إلى دمشق، لكن عبد الرحمن الخميسي كان قد طيـر خبـرا لجريدة الجمهورية باعتقالي في عمان، ولم يكن الخبر بالطبع صحيحا، وعندما وصلت إلى دمشق وعلمـت بالموضـوع وسألت الخميسي لماذا فعلت هذا؟ أجاب وهو يضحك: "مـن باب الاحتياط"!.

التهديد التركي لسوريا

عندما وصلت إلى دمشق كانت أزمة التهديـد التركـي لسوريا في أشدها، وكانت القوات المصرية قد أخذت مواقعها فرأيت أن من المناسب أن أزور عددا من المـدن السـورية لاستكشاف الاستعدادات لمواجهة الغزو التركـي المحتمـل، وبالفعل ذهبت إلى المكتب الثـاني (المخـابرات) وقابلـت عبد الحميد السراج (رئيسه آنذاك) وطلبـت منـه ترتيـب

التصريح لي بزيارة عدد من المواقع.. في حمص واللاذقيـة وحلب.. ألخ.

فرحب بذلك وأصدر لي تصريحا بزيارة هـذه الأمـاكن ومقابلة قادتها. وعندما علم بعض الصحفيين المصريين فـي دمشق بذلك أبدوا رغبتهم في أن يكونوا معي. كان معنا فـي السيارة حسن شاه الهاكع وأحمد سعيد مراسل وكالة الشـرق الأوسط في دمشق وصحفية ثالثة من أخبار اليوم هي فاطمة سعيد. وبالفعل غادرنا دمشق في الفجر في سـيارة مكتـوب على زجاجها الأمامي (صحافة مصرية).

ومهما حاولت أن أصف حفاوة الشعب السوري بنا فلـن أستطيع، سوف أذكر قصة واحدة تشير إلـى ذلـك. عنـدما وصلنا إلى الميدان الرئيسي في حمص أوقفنا بعض الأهـالي وصمموا على أن ننزل لتناول الإفطار في منزل أحدهم:

فلما أخبرناهم أننا تناولنا بعض الإفطار في السيارة ونحن في الطريق وشكرناهم على كرمهم رفضوا الاسـتماع إلينـا وحلف أحدهم بالطلاق أنه لابد من أن نتناول الإفطـار فـي منزله وبالطبع رضخنا لهذا الكرم الحاتمي وأفطرنـا مـرة أخرى.

ثم ذهبنا بالسيارة إلى موقع القيادة حيث قابلنا الضباط السوريين والمصريين الذين رحبوا بنا ثم ذهبنا إلى مكتب محافظ حمص حيث واجهنا أعظم مفاجأة!

كان الزملاء المصريون معي قد اتفقوا على أن أتولى – باعتباري أكبرهم سنا – تقديمهم إلى الجهات المختلفة التي نزورها. وقد قمت بهذا عند وصولنا لمكتب المحافظ، فوجدت منه حفاوة شديدة بأحمد سعيد الذي معنا ظنا منه أنه أحمد سعيد المشرف على صوت العرب، وأدركت بسرعة المشكلة وحاولت أن أشرح بهدوء للمحافظ أن الصحفي الذي معنا ليس أحمد سعيد صوت العرب. فإذ به ينفعل ويقول إن ما وصله من المكتب الثاني من أسماء لصحفيين مصريين من بينهم أحمد سعيد جعله يدعو شعب حمص للاجتماع في الميدان الكبير بين الظهر للاستماع إلى خطاب من أحمد سعيد صوت العرب. وبالفعل كانت الميكروفونات الثابتة والمتنقلة في سيارات تدعو إلى اجتماع بعد الظهر لسماع أحمد سعيد. وأدركنا أننا في ورطة! ماذا نفعل؟

حاولت أن أقنع أحمد سعيد الذي معنا في الوفد أن يتكلم فرفض بإصرار وهدد بالعودة إلى دمشق فورا، قلت له:

سوف أكتب لك الخطبة وما عليك إلا قراءتها فرفض. إنـه شاب خجول لا يجيد الخطاب أمام الناس (وهـو بالمناسـبة أصبح وكيل التليفزيون المصري بعد ذلك بسنين طويلة).

وبالتالي فلم يكن هناك مفر من أن أتكلم أنا، وأنا طبعـا لست أحمد سعيد.. ووقفنا في شـرفة المحافظـة.. ممثلـو الأحزاب الوطنية السورية ورجال الدين مسلمين ومسـيحيين وبعض الضباط والصحفيين المصريين. وتكلم رجال سوريا أولا ثم عندما جاء الدور علينا لم تستمع الجماهير إلى اسـم الشخص الذي سوف يتحدث لأن إطلاق النار مـن الأهـالي ترحيبا قد غطى على كل شيء.

وبعد انتهاء الاحتفال نزلنا إلى السيارة لمغادرة حمـص إلى اللاذقية فأصرت الجماهير السورية على إخراجي مـن السيارة للترحيب بي وتقبيلي، وبعضهم لاشك قد أدرك أننـي لست أحمد سعيد، وإن كانت كلمتي قد سرتهم.

وقد اكتشفت بعد ذلك أن أهل حمص معروفون في الشام بطيبتهم وسذاجتهم تماما كما نتحدث نحن عن أهل الشـرقية الذين عزموا القطار أو من الصعيدي الذي اشترى التـرام. عرفت ذلك من عفيف البرزى قائد الجيش السوري آنـذاك،

وعندما أخذني بعد ذلك في سيارته أنا وخالد محيي الدين لزيارة حمص مرة أخرى ألفيناه يضحك مع المحافظ ويعيد قصة أهل حمص مرة أخرى.

بعد وصولنا إلى اللاذقية كنت متلهفا للوصول إلى حلب إذ كان واضحا لي أن أولى معارك الجيش التركي – لو قرر الهجوم فعلا – سوف تكون في حلب.

وفي حلب وجدت الاستعدادات العسكرية تجرى على قدم وساق.. حفر خنادق وإقامة استحكامات، وكانت قلعة حلب هي المكان الذي تطل منه على ما يجري في المدينة.

الغريب أنني وجدت من بين الضباط المصريين الذين كانوا يقومون بتدريب الميلشيات على أعمال المقاومة الضابط حسن صبري الخولي (الذي أصبح فيما بعد المبعوث الشخصي للرئيس عبد الناصر في أعمال سياسية عربية كثيرة).

وكنت أعرف حسن صبري الخولي من العباسية حيث نشأنا سويا وظللت على علاقة به بعد الثورة، لذا فرحت جدا بلقائه، وقد دبر – ترحيبا بنا – زيارة للحدود السورية التركية عبر الجبال الشاهقة والطرق الضيقة.

بقى أن أذكر أنني كنت أول صحفي مصري يزور قطاع غزة بعد جلاء الإسرائيليين عنها وعـودة الإدارة المصـرية (أعتقد أن ذلـك تـم فـي ينـاير سـنة ١٩٥٧. حيـث إن الإسرائيليين دمروا خط السكة الحديد الذي كان يصـل بـين غزة والقنطرة شرق فلم يكن هناك مفر من تأجير تاكسي في القنطرة شرق يأخذني إلى غزة، وكان فـي السـيارة أنـاس آخرون ذاهبون إلى هناك وقبل وصولنا إلى غزة بنحو ربـع الساعة فوجئنا برتل من السيارات يسد الطريق تماما. وعندما وصلنا إلى السد أدخل أحد الواقفين رأسه في سيارتنا وسـأل عني وعرفت بعد ذلك أنهم يمثلون وفدا مـن شـباب غـزة عرفوا لا أدري كيف أني قادم إلى غـزة وأنهـم خرجـوا للترحيب بي، وقضيت أسبوعا في غزة نزلت خلالـه فـي منزل جمال الصوراني وقابلت قيادات غزة الوطنية: حيـدر عبد الشافي وجمال الصوراني ومعين بسيسو والبقية. وكنت أتناول الغداء يوميا في أحد منازل غزة، وكان الغداء التقليدي هو المنسف والكنافة النابلسية.

والمنسف هو طبق كبير مـن الأرز والعـيش واللحـم، يأكلونه بأيديهم على طريقة الأعراب، أما الكنافـة النابلسـية فهي من أجمل ما ذقت من الحلويات.

ومن نتائج هذه الزيارة أني كتبت مقدمة ديـوان معـين بسيسو "مارد من السنابل" عن المقاومة التي نظمـت ضـد الاحتلال الإسرائيلي آنذاك وحتى اليوم لا يزال الكثيرون من رجال غزة يزورونني في القاهرة ونتذكر سويا أيـام هـذه الزيارة الجميلة التي أوقدت حبي لأهل غزة ونضالها.



انتخابات الدائرة السادس

اتجهت الثورة إلى إجراءات انتخابية لأول مرة بعد انتهاء العدوان الثلاثي وهزيمة أهدافه. وتحدد شـهر يوليـو سـنة ١٩٥٧ موعدا لإجراء الانتخابات، وبالطبع لم تكـن هنـاك أحزاب رسمية تتقدم لدخول هذه الانتخابات، وإنمـا يتقـدم الأفراد الراغبون في دخولها إلى لجنة يرأسها عبد الناصـر وتضم في عضويتها عبد الحكيم عامر وزكريا محيي الـدين وكمال الدين حسين فيما أذكر.

ولقد تقدم إلى هذه اللجنة عدد من اليسـاريين المعـروفين طالبين الترشيح فرفضتهم، وتقدمت أنا بطلبي إلـى اللجنـة، فوافقت اللجنة على ترشيحي لمجلس النواب. وكـان سـبب الموافقة فيما أعتقد هو موقفي في بريطانيا عند تأميم القنـاة، مدافعا عن التأميم في اجتماعات بريطانية مختلفة كان آخرها الاجتماع الحاشد في ميدان الطرف الأغر فـي ٣١ أكتـوبر سنة ١٩٥٦.

وقد اخترت أن أتقدم للدائرة السادسة (الوايلي) لأن أهلـي جميعا من عائلة الأب أو الأم يقيمون في العباسـية طـوال حياتهم، وقد نشأت في العباسية وتعلمت في مدارسها، حتـى كلية العلوم التي التحقت بها جامعيا كانت في العباسية آنذاك.

وتحمست لترشيحي كل فصائل اليسار في مصر باستثناء جماعة "حدتو" التي اختارت أن تؤيد في هذه الدائرة عاملا من عمال الترام (عبد العزيز مصطفى) وقيل حينذاك أنهم قرروا تأييده لأنه عضو في تنظيمهم، بينما قال الشيخ مبارك بعد ذلك بسنوات طويلة في ذكرياته أنهم أيدوا عبد العزيز مصطفى لأنه عامل، أي أنهم فضلوا العامل على المثقف وهي حجة سخيفة أمام أي فكر يساري عاقل.

ولقد بلغ حماس المثقفين لترشيحي أن وقع عدد من كبار المثقفين بيانا يعلنون فيه تأييدي ويدعون الناس في الدائرة السادسة إلى الوقوف معي، ومن هؤلاء أتذكر أسماء إحسان عبد القدوس رئيس تحرير روز اليوسف وكامل الشناوي رئيس تحرير الجمهورية وأحمد بهاء الدين الكاتب المعروف والدكتور لويس عوض، ومع أنني لم أسع للحصول على توقيع نجيب محفوظ إلا أنني عندما كنت أزور بعض المنازل في منطقة "بين الجناين" حيث كان يسكن هو آنذاك أفاجأ بمن يخبرني من السكان أن الأستاذ نجيب محفوظ قد زارهم بيتا بيتا مؤكدا عليهم أهمية انتخابي. وبالطبع كان لمثل هذا الخبر تأثير عظيم في قلبي وتقدير أعظم في نفسي، مع أنني حتى

ذلك الوقت لم نكن على صلة قريبة من الناحيـة الشخصـية وإن كان قد أهداني ثلاثيته عندما صدرت.

وتحمس أيضا لترشيحي الطلاب العرب فـي الجامعـات المصرية من فلسـطينيين وأردنيـين وسـوريين ولبنـانيين ويمنيين حتى أن اجتماعاتي الانتخابية لم تكن تخلو في يـوم من الأيام من حضورهم وهتافاتهم، مما خلق جـوا عربيـا احتفاليا في الدائرة السادسة.

موقف مضاد!

وقد أصبح من الواضح لي بعد أيام من النشاط الجماهيري في الدائرة أن هناك قوى في الدولة تقف ضد انتخابي، اتضح هذا من مضايقات البوليس لـي ورفـض التصـريح بعقـد الاجتماعات أو اشتراط عدم استعمال الميكروفونات، حتـى عندما بدأ زملائي في جريدة المساء فـي التبـرع المـالي لمساعدتي اتصل أحد المسئولين بخالد محيي الـدين رئـيس التحرير طالبا التوقف عن ذلك.

وعندما نظمت اجتماعا جماهيريا واسعا في ميدان الوايلي قرب يوم الانتخابات أخذ بعض رجال الحكومة وزملاء مـن "حدتو" الذين كانوا يناصرون عبد العزيز مصطفى يتصـلون

بالناس هاتفيا أو بالمقابلة يثنونهم عن حضور المؤتمر بحجة أن بعض الأشرار سوف يلقون "ماء نار" على وجـوه مـن يحضرون، ومع ذلك فقد حضر الكثيرون وكان يجلس معـي علـى المنصـة أحمـد بهـاء الـدين، ولـويس عـوض و د. عبد المجيد أبو حجلة (مـن قيـادات الأردن آنـذاك) وآخرون لا أتذكرهم، وامتلأ السرادق بآلاف من أهل الدائرة والزائرين، وابتدأ الاجتماع بكلمة جامعة مني ومن الآخرين، فلما أدرك البوليس أن مساعيهم باءت بالفشل هجموا بـالقوة على السرادق وأمعنوا في ضرب النـاس لإخـراجهم مـن السرادق، بل لقد حاولوا الوصول إلي بهدف الاعتداء أيضـا لولا أن عددا من الزملاء أحاطوا بي وأخرجوني سالما مـن باب خلفي، ولا أنسى في هذا الصدد الدور الكبير الذي لعبته الفنانة العظيمة محسنة توفيق التي كانت آنذاك طالبـة فـي الثانوية العامة شديدة الحماس الانتخابي.

وقد تبين يوم الانتخاب أنني حصلت - رغم كل ما حـدث - على أعلى أصوات ضمن تسعة كانوا مرشحين في تلـك الدائرة، منهم الممثل سراج منير. لقد حصلت على أكثر من

خمسة آلاف صوت ويليني بعد ذلك عبد العزيـز مصـطفى الذي حصل على ألفي صوت.

وحيث إن عدد الأصوات في الدائرة كان حوالي ١٢ ألف صوت، فقد كان لابد من الإعادة بيني وبـين عبـد العزيـز مصطفى.

ولما كانت وزارة الداخلية تعلم أن غالبيـة أهـل الـدائرة يؤيدونني، فقد لجأت إلى استبدال صناديق الانتخاب بصناديق أخرى أدخلت إلى قسم الوايلي في المساء باعتبارهـا أنهـا الصناديق الحقيقة.

وكنت قد اتفقت مع بعض أنصاري على مراقبة القسم ليلا خوفا من حدوث هذا وكانت النتيجة أن قبض عليهم وضربوا ضربا مبرحا ومنهم رشدي خليل رحمه الله.

وأعتقد أن أكبر خطأ وقعت فيه أننـي لـم أتمـم علـى الصناديق كما يفعل بعض المرشحين، خصوصا أن بعـض أنصاري طردوا من اللجان الفرعية خلال الانتخابات.

ومن المصادفات الغريبة أنني بعد هذه الأحداث بسـنوات عدة وكنت معتقلا آنذاك بسجن الواحات، قابلـت بالصـدفة رجلا كان مشتركا في عملية تبديل الصـنادق وحكـى لـي

تفاصيل القصة وقال لي: إنه كان آسفا على ذلك ولكنها كانت تعليمات لابد من تنفيذها.

لقد كنت ذاهبا من سجن الواحات إلى مستشـفى بأسـيوط للعلاج وحضرت سيارة بها ضابط ومخبر وسـائق طبعـا. وكان الضابط يجلس إلى جانب السائق بينمـا جلسـت أنـا والمخبر في السيارة البوكس في الخلف وفي الطريق بـدأت الدردشة العادية مع المخبر إلى أن سألني إن كنـت أذكـره. قلت: لا أبدا، فضحك وقال: إنه كان في قسم الـوايلي عـام ١٩٥٧ وحكى لي قصة الصناديق التي استبدلت في الـدائرة السادسة لإسقاطي وإنجاح عبد العزيز مصطفى.

أتذكر أنه في اليوم الذي هجم فيه البوليس على الاجتمـاع الجماهيري قبل الانتخابات بأيام قليلة ذهبت بعد الحادث إلى جريدة الجمهورية وقابلت كامل الشناوي – (وكـان صـديقا حميما لي وواحدا من أنصاري) وحكيت له ما حدث. وبينما نحن نتحدث في الموضوع دخل إلى الغرفة أنـور السـادات (وكان آنذاك رئيس مجلس إدارة الجمهورية) وطلـب منـي كامل الشناوي أن أعيد القصة أمام أنور السادات ففعلت، فقال أنور السادات بعد برهة: أكتب تقريرا بما حدث وسأرفعه إلى

الرئيس جمال عبد الناصر وأعطاني كامل الشـناوي بعـض الأوراق فأخذت في كتابة القصة كاملة وأنا في حالة انفعـال كامل.

ولا أدري حتى اليوم إن كـان مـا كتبتـه قـد وصـل عبد الناصر حقا! وكل ما أعرفه ما حكاه خالد محيي الـدين لي بعد ذلك عند لقائه بعبد الناصر من أنه عاتبه على الأقوال السائرة آنذاك بتزوير انتخابات الدائرة السادسة. لكـن خالـد محيي الدين تمسك بصحة هذه الأقوال وقدم لعبـد الناصـر أمثلة على هذا التزوير. فمثلا في إحدى الشياخات الفرعيـة كان هناك من أقاربي حوالي ١٢ شخصـا ذهبـوا جميعـا لانتخابي في الإعادة بينما النتائج في هذه الشياخة تقول أنـي حصلت على ٤ أصوات فقط!.

المهم أن هذه الانتخابات وما حدث فيها قد خلقت جوا من الريبة بيني وبين عبد الناصر، حتى أنه أخذ يستمع لـبعض القيادات البعثية. وخصوصا ميشيل عفلق الذي لم يكن يحبني وكنت أبادله نفس المشاعر.

وحدث أن كتبت مقالا في صحيفة المساء استخدمت فيـه تعبير (الحركة الوطنية العربية) فإذا بميشـيل عفلـق يقنـع

عبد الناصر أنني معاد للقومية العربية، واتصل عبد الناصر بخالد محيي الدين مهددا باعتقالي، وقد دافع خالد عني دفاعا مجيدا، وكنت بالمصادفة في غرفته عنـدما حـدث اتصـال عبد الناصر به، وفي النهاية أمر أن أتوقف عن الكتابة.

واتفق خالد معي على أن أستمر في الكتابة دون توقيـع، فكنت أكتب المقال بتوقيع "مراقب". ومن يعود إلى صـحيفة المساء عام ١٩٥٨ سوف يرى العديد مـن المقـالات بهـذا التوقيع.

واستمر الحال على هذا المنوال حتى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ الشهيرة التي تم فيها اعتقال المئات مـن اليسـاريين وكنت منهم، وعندما فتشوا منزلي لم يجدوا فيه غير بيان كنا نجمع عليـه التوقيعـات يطالـب الـرئيس عبـد الناصـر بالديموقراطية السياسية.

موقف من المرحلة الناصرية

قال صديقي وزميلي في جامعة عين شمس في يـوم مـن أيام عام ١٩٨٤، وكان يداوم على قراءة مقالاتي في صحيفة "الأهالي" بشكل منتظم:

"إنك تحيرني بدفاعك المجيد عن المرحلة الناصرية وعـن عبد الناصر في مقالاتك بصحيفة الأهالي على أنني أعـرف من ملازمتي لك طوال هذه السنين منذ عينا نحـن الاثنـين معيدين بالجماعة حتى اليوم أنك لم تلق عنتا في حياتك مثـل ما لقيته خلال المرحلة الناصرية فأنت فصلت مـن جامعـة القاهرة عام ١٩٥٤ بقرار من مجلس قيـادة الثـورة وأنـت اعتقلت ضمن مئات آخرين من الشيوعيين اليساريين في أول يناير ١٩٥٩ حتى أبريل ١٩٦٤.

ولاقيت مع زملائك خلال الاعتقال ما لقيتموه مـن عنـت وتعذيب مسجل في كتابك "رسائل الحب والحـزن والثـورة" وقدمت أنت وستون من رفاقك للمحاكمة أمام مجلس عسكري بالإسكندرية في نـوفمبر ١٩٥٩، ومـع أن هـذا المجلـس العسكري أصدر حكما ببراءتك أنت وصديقك محمود أمـين العالم إلا إنكما بقيتما في معتقل الواحات الخارجـة إلـى أن أفرج عن الجميع في أبريل ١٩٦٤ ومع ذلك فلم أقرأ دفاعـا

مجيدا عن عبد الناصر ومرحلته كما قرأته في مقالاتك بصحيفة الأهالي فهل تسمح لي بتفسير هذه الفزورة؟".

قلت:

ليس في الأمر فزورة ولا يحزنون فمعياري في الحكم على المرحلة الناصرية لم يقم أساسا بما حدث لي شخصيا، وإنما بما حدث لشعب مصر خلال تلك الفترة، وأي شخص قادر على الحكم الموضوعي لابد أنه سيدرك أنه في حساب المكاسب والخسائر، الايجابيات والسلبيات فإن المرحلة الناصرية قد حققت للشعب المصري الكثير من المكاسب المهمة التي كنا نطالب ببعضها قبل الثورة.. الإصلاح الزراعي، القطاع العام، وإنهاء الاحتلال البريطاني، تأميم قناة السويس، التوسع في مجانية التعليم في مراحله المختلفة، تحسين صحة الشعب ومستوى معيشته مقارنة بما قبل الثورة، بناء السد العالي، وقوف مصر الدولة إلى جانب نضال الشعوب العربية في نضالها ضد السيطرة الأجنبية ودعم ثوراتها، بل ودعم ثورات أفريقية.. إلخ وربما إذا أردت تعداد كل الأعمال العظيمة التي صنعها عبد الناصر خلال حكمه أن أكتب مقالا كاملا عن هذا الموضوع.

شيء واحد وأساسي كان محـل خلافـي مـع المرحلـة الناصرية وقادتها.. هو غياب الديمقراطية السياسية الحقيقية.. فقد كنت ومازلت أعتقد أن تلك هي نقطة الضعف الأساسـية في المرحلة الناصرية، وهي التي غطـت علـى السـلبيات الأخرى التي وقعت آنذاك وكان هناك حرص على التسـتر عليها وهذه المسألة هي في رأيي المسئولة عن التستر علـى الفساد داخل الجيش آنذاك، وهو الفساد في القيـادات الـذي اتضحت أبعاده عند وقوع كارثة سنة ١٩٦٧، وهـي أيضـا المسئولة عن هشاشـة التنظيمـات الشـعبية التـي بناهـا عبد الناصر وامتلأت مع الأسف بالعناصر الانتهازية التـي تلعب دورا مهما اليوم في الـردة التـي صـاحبت نظـامي السادات ومبارك.

ولقد أخذت هذه القضية في نظري بعدا حيويا إثر إبـرام الوحدة المصرية السورية في فبراير سنة ١٩٥٨ وعندما تـم القبض علي في أول يناير سـنة ١٩٥٩ كـان مـن ضـمن المضبوطات بيان كنا أعددناه عن قضية الديمقراطية السياسية وأهميتها كدعاية أساسية للوحدة، وكان من الموقعين على هذا

البيان أنور عبد الملك وسعد التائه ومحمود العالم وكاتب هذه السطور وآخرون لا أذكر اليوم أسماءهم..

والغريب أنه خلال تحقيق النيابة معي وخـلال المحاكمـة أمام المجلس العسكري كان هناك حرص من الجانبين علـى تجنب السؤال عن هذا البيان، بينما كنت أنا حريصـا علـى الإشارة إليه في كل مناسبة.

هذا إذن الموقف على حقيقته، أما دفاعي عن عبد الناصر وحكمه فقد وقع في زمن الردة الشاملة، زمن نظامي السادات ومبارك، عندما سحبت بالتدريج كل المكاسب العديدة التـي حققها شعب مصر خلال حكم عبد الناصر، وعندما التحـق كثيرون ممن كانوا في التنظيم الطليعي بركاب الردة وخيانة مصالح هذا الشعب من أجل الوجاهة والمال والسلطان.

أكتب هذه الكلمة لأقول: إن عهد عبد الناصر لم يخل مـن سلبيات معظمها هو ثمرة غياب ديمقراطية سياسية حقيقـة، ديمقراطية قادرة على تعبئة الجماهير في عملية إبداء الـرأي واتخاذ القرار (وهذا بالمناسبة هو المطعن القاتل الذي دمـر الأنظمة الاشتراكية في روسيا وشرق أوروبا)، بـل وقعـت

جرائم في عهد عبد الناصر مثل إعدام خميس والبقري فـي كفر الدوار بعد محاكمة غير عادلة.

لكن الحكم العام على المرحلة الناصرية هو فـي رأيـي إيجابي لأنه حقق الشعب العديد من المكاسب واكتسبت مصر احترام العالم، ومن المهم إبراز هذا الجانب الإيجابي في زمن الردة زمن سلب الشعب كل ما كسبه في المرحلة الناصـرية زمن الخضوع للأجنبي وبيع القطاع العام، زمـن "السـلام" الزائف مع الصهاينة" ولأنه سلام إذعان، فلا يمكن أن يكتب له الدوام!



باقة ورد لإحسان عبد القدوس

الاستنارة والشجاعة

أحسست وأنا أمشي في جنازة الأديب الراحـل إحسـان عبد القدوس أنني أجر ورائي ذكريات ٥٠ عاما من الصـبا والشباب والكهولة، ذكريات جميلة حقا لكنها دبـت وكأنهـا تختصر أحداث تلك الحقبة الطويلة من تاريخ مصر.

كنت وإحسان في مدرسة ثانوية واحدة هي مدرسة فـؤاد الأول الثانوية (الحسينية الآن) بالعباسية، وكنت فـي السـنة الأولى بينما هو في السنة الخامسـة، وكنـا نضـرب عـن الدراسة ونتظاهر فـي شـارع العباسـية احتجاجـا علـى تصريحات وزير خارجية بريطانيا "صموئيل هور".

كان إحسان في مقدمة المظاهرة، بينما كنت أنا في الثانية عشرة من عمري في المؤخرة، وانتهت المظاهرة بالتصـادم مع البوليس ونجا إحسان، بينما وقعت أنا في أيديهم وقضيت في حجز قسم شرطة الوايلي يوما واحد حتى أفرج عني.

لم يكن إحسان يعرفني شخصيا، لكني فوجئت بعد ثـورة يوليو بعدة شهور يـذكرني، وهـو يسـتقبلني فـي مكتبـه

بروز اليوسف بتلك الواقعة التي كان قد انقضـى عليهـا ١٧ عاما.

ولقد تميز إحسـان بخصـلتين مازلـت أذكرهمـا لـه، وأحسبهما من أجل شمائله على الرغم من الخلافات السياسية والأدبية التي فصلت بيننا، وإن لم تؤثر على صداقتنا.. هاتان الخصلتان هما سعة أفقه وشجاعته.

بعد ثورة يوليو بأسابيع عدة من البعثة فـي بريطانيـا، وعينت مدرسا بكلية العلوم بجامعة القاهرة، وبـدأت أكتـب أسبوعيا بصفحة الأدب بصحيفة المصري.

وأذكر أنني كتبت مقالا طويلا تعرضت فيه بالنقد الحـاد لقصص إحسان وإذ ببعض الأصدقاء مـن العـاملين معـه يتصلون بي، ويقولون إنه يريد أن يراني.

وبالفعل ذهبت إلى لقائه في مكتبه، فإذا به يعرض علـي أن أكون من كتاب روز اليوسف!

وبدأت بالكتابة فيها كل أسبوع، ثم قمت بتحريـر بـاب "أدب" بعد انتقال فتحي غانم لأخبار اليوم.

وظل هذا هو الوضع حتى نهايات عام ١٩٥٤ ـ عنـدما صدر قرار مجلس قيادة الثورة بفصلي من الجامعة ضـمن

آخرين، وذلك بسبب موقف اليسار من الثورة وخلافها معها حول قضية الديمقراطية.

وعندما عرضت علي وظيفة مدرس بجامعة لندن قبلتهـا مضطرا لأنني عشت في القاهرة شهورا بلا عمل. ومن لندن ظللت أرسل بعض المقالات الثقافية لإحسان فيقوم بنشـرها رغم علمه أنني من المغضوب عليهم.

ثم تجلت شجاعته حقا فـي مقـال نشـره عنـي فـي روزاليوسف عام ١٩٥٥ بعنوان "الرجل الذي سرقه الإنجليز" قال فيه أشياء طيبة عني لا أستطيع ذكرها هنا، ثم دعا فـي ختام المقال إلى إعادتي لمصر، وإلى جامعة القاهرة.

بعد أيام من نشر المقال، كان إحسان في طريقـه إلـى باندونج في صحبة الزعيم جمال عبد الناصـر فسـأله عـن المقال وعني، وقام إحسان بشرح وجهة نظره فـي إسـهاب لكن عبد الناصـر خـتم الحـديث بقولـه: "إن الشـيوعيين يضحكون عليك ويستخدمونك يا إحسان"!

تذكرت هذه القصة وأنا أسير يوم الجمعة الماضي حزينا في جنازته ضمن ذكريات عديدة جمعتني بالصديق الراحل – فإذا بالدموع تنساب ولا أستطيع كتمانها.

شهادة للتاريخ

التقيت بها بالصدفة على مائـدة العشـاء عنـد بعـض الأصدقاء في الأسبوع الماضي، ولم تكن تعرف عني غيـر أنني أستاذ بالجامعة، ولم أكن أعرف عنها غير أنها إنجليزية مهتمة بقضايا التعليم وأنها ليست بعيدة عن نشـاط المجلـس البريطاني الثقافي في القاهرة.

ولأن مكاني على المائدة جاء مجاورا لمكانها، ولأن أدب الحوار يقتضي نوعا من الحديث والحوار فقد سألتها أن كانت مقيمة بمصر منذ مدة طويلة؟.. قالت: أربع سنوات، قلـت: وهل تروق لك الحياة بمصر؟ قالت: نعم باستثناء المتاعـب المعروفة، المواصلات، الضوضاء، المجاري.. إلـخ لكنـي أحب هذا الشعب الكريم المضياف والصبور أيضا..

ومضى الحديث على هذا النحو التقليدي حتـى فاجـأتني بسؤال أطار النعاس من عيوني والملل من نفسي.

قالت: قل لي بالله كيف تسمح أنظمتكم التعليمية بـدخول الحاصلين على الثانويـة البريطانيـة "المسـتوى العـادي" الجامعات المصرية مع أن هذه الشهادة في بلادنا لا تؤهـل الحاصل عليها إلا للخروج من المدرسة الثانوية إلى العمـل، وأن الطالب في بريطانيا عليه أن يمضي عامين في الدراسة

قبل أن تقبله الجامعة وكيف تقبل جامعاتكم طلبة لم يدرسـوا لغتكم القويمة، اللغة العربية، في السـنتين الثانيـة والثالثـة الثانوية. إن الوضع الذي أراه هنا هو أن أعدادا هائلة متزايدة كل عام من الطلبة المصريين بعد نجاحهم في امتحان السـنة الأولى الثانوية في مدارسهم المصرية يتقـدمون لامتحـان، المجلس البريطاني في الشهادة الثانوية البريطانيـة، وهـي لا تتضمن بالطبع امتحانا في اللغة العربية، ويحصلون عليها خلال عام وبعدها يدخلون جامعاتكم، فكأنهم بذلك قد وفـروا عاما كاملا من دراستهم ووفروا مشقة دراسة اللغة العربيـة سنتين كاملتين، وجامعاتكم تقبلهم على ذلك! هـل يمكـن أن تفسر لي هذا اللغز؟ وكيف يتسق كل هذا مـع مبـدأ تكـافؤ الفرص الذي تتحدثون عنه كثيرا؟!.

قلت: هذا سؤال جدير بأن توجهيه إلى وزير التعليم فـي مصر، وأمين المجلس الأعلى للجامعات، ورؤساء الجامعات المصرية، الذين قبلوا على أنفسهم هذا الوضع المهين لشهادة الثانوية المصرية، والذين رضوا عن طيب خـاطر بسياسـة القفز من فوق القواعد الديمقراطية لدخول الجامعة مجاملـة لبعض الفئات القادرة في مصر وصاحب الصوت العالي.

ولقد فات عليك أن تذكري أن طالب الثانوية البريطانيـة المصري قد وفر على نفسه أيضا مشقة دراسة الرياضـيات في المناهج المصرية لمدة عامين، لأنك، كما لا شك تعرفين، أن مناهج الرياضيات في الثانوية البريطانية أدنى كثيرا مـن مناهج مصر"..

قالت: نعم أعلم ذلك، وهذا أمر طبيعي لأن شهادتنا هـذه لا تؤهل أحدا لدخول الجامعة، ولو حاول أحد طلابكم، مـن الحاصلين على الثانوية البريطانيـة، التقـدم إلـى جامعـة بريطانية لرفض طلبه طبعا، وبالمناسبة لم أفهم، أيضا، كيف قبلت السيدة جيهان السادات أصلا كطالبة فـي قسـم اللغـة العربية، في كلية الآداب، مع أنها لم تؤد امتحانها في مناهج اللغة العربية للمرحلة الثانوية؟ ألم تتقدم إلى جامعة القـاهرة بشهادة الثانوية البريطانية؟"

قلت – وأنا أزداد خجلا: هذا سـؤال جـدير أن يوجـه لرئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب ولعميد كلية الآداب ورئيس جامعة القاهرة آنذاك؟

وسألتها عن عدد الطلاب المصريين المتقدمين هذا العام للثانوية البريطانية، فقالـت علـى الفـور: لـدى المجلـس

البريطاني موعدان للجلوس إلى هذا الامتحان.. يناير ويونيه والعدد المتقدم من الطلاب المصريين في كل موعد يزيد على الألفين!، فكم يكون العدد بعد عدة سنوات؟

***

ولأن العشاء انتهى بسرعة فقد حمدت الله على انصرافنا دون أن اضطر إلى إجابة السيدة الإنجليزية على هذه الأسئلة المحرجة، لكني فكرت وأنا عائد إلى منزلي أن هذه قضـية جديرة أن تفتح على صفحات الصحف مرات ومرات، وأنه، رغم أنه قد سبق لي أن أثرت الموضـوع علـى صـفحات "الأهالي" منذ عدة شهور، فإنه من الضرورة إلقـاء أضـواء جديدة على الظروف التي ظهرت فيها هذه "الموضة" الجديدة التي يقبل عليها بأعداد متزايدة أبنـاء القـادرين والأثريـاء لدخول الجامعة من الباب الخلفي!

إنني اعتقد أن هذا الباب الخلفي قد فتح على مصـراعيه في عام ١٩٧٤ عندما كان ابن رئيس الجمهوريـة السـابق طالبا في الثانوية العامة. كنت آنذاك وثيق الصـلة بـوزارة التربية والتعليم، فقد كنت رئيسـا للجنـة القوميـة لتعلـيم الرياضيات في التعليم العام، وكنت مستشارا للوزارة ومشرفا

على تدريب المدرسين في الرياضيات المعاصـرة، وكنـت أزور المدارس الثانوية التي طبقت المناهج الجديدة، وأناقش نظار المدارس في توزيع جدول الرياضيات على المدرسـين وفي اختيار المدرسين أنفسهم للتدريس في الفصول المختلفة، وأحضر كثيرا من الحصص بنفسي.

ومن بين هذه المدارس التي كنت أزرها آنذاك مدرسـة بورسعيد بالزمالك، حيث كان جمال السادات، وكان معروفا بالمدرسة أنه يستحيل عليه أن ينجح فـي امتحـان الثانويـة العامة المصرية (القسم العلمي)، فما بالك بالحصـول علـى مجموع يدخله كلية مثل كلية الهندسة!

في هذا الوقت، بدأت صحف الحكومة فجأة تتحدث عـن صعوبة مناهج الثانوية العامة، وإلى هنا فإن الأمر طبيعـي إلى حد ما، لكن الأغرب من ذلك أن الموضوع دخل مجلس الوزراء.. نعم أخذ مجلس الوزراء يناقش صـعوبة منـاهج الثانوية العامة، وكان د. عبد القادر حاتم يـرأس المجلـس، وقرر تشكيل لجنة وزارية لبحث الموضوع! إن الشكوى من مناهج التعليم العام أمر طبيعي والآراء بين التربويين تتفاوت حول هذا الموضوع، لكن الطبيعي أن يدور الجدل حول هذا

في أروقة الوزارة المختصة.. وزارة التعليم. أما أن يجد مجلس الوزراء الوقت لمناقشة مناهج الثانوية العامة بالذات وفي عام ١٩٧٤ بالذات عندما كان جمال السادات طالبا بالثانوية العامة. فلابد أنه كان مصادفة سعيدة!

وقد شكلت اللجنة الوزارية لبحث هذا الموضوع من المرحوم د. حسن الشريف وزير التأمينات، و د. محمود عبد الحافظ وزير الإسكان، والدكتور كامل ليلة وزير التعليم السابق، والمرحوم الأستاذ علي عبد الرزاق وزير التربية والتعليم. واستدعيت أنا لحضور اجتماعات اللجنة مع أساتذة آخرين من الجامعات ومن رجال الوزارة في مكتب وزير التأمينات، يشهد على هذه الواقعة كثيرون من رجال الجامعات الأحياء منهم: د. صبحي عبد الحكيم رئيس مجلس الشورى الحالي والذي كان يمثل مادة الجغرافيا، والدكتور محمد أنيس والذي كان يمثل مادة التاريخ، والدكتور محمد النادي الذي كان يمثل مادة الطبيعة. ولقد قلت للصديق المرحوم د. حسن الشريف ساخرا في التليفون "إن العلاقة بين التأمينات ومناهج الثانوية العامة لابد وثيقة، وإلا ما عقدتم الاجتماع في وزارة التأمينات".

ولقد كان واضحا أن الأستاذ علي عبد الرزاق لـم يكـن راضيا عن هذا العمل، ولذلك لم يحضر الاجتماع وحضـر الدكتور كامل ليلة الاجتماع قرب نهايتـه، ودارت المناقشـة أساسا بين المستشارين وبين وزيري التأميذـات والإسـكان. وكان واضحا منذ أول الاجتماع، أن مادة الرياضـيات هـي المستهدفة بالاختصار الشديد، ولذا دارت مناقشات حادة بيني وبين وزير الإسكان طالت لأكثر من ساعة، وصممت علـى موقفي برفضي طلب وزير الإسكان بإلغاء كتـاب التفاضـل والتكامل من مناهج الثانوية العامة. والتفت دكتـور محمـود عبد الحافظ إلى المرحوم دكتـور حسـن الشـريف وقـال بالإنجليزية بصوت مسموع "لا فائـدة.. لا يوجـد طريـق للتفاهم".

وأرسل لي أستاذ جامعي تحت منضدة الاجتماع، ورقـة سلمها لي دكتور صبحي عبد الحكيم – الذي كـان يجلـس بجواري، يقول فيها" كفى.. إنك لن تقنع هؤلاء الناس بشيء أبدا".

وانفض الاجتماع وأنا على موقفي ورجال الوزارة من أساتذة الرياضيات متضامنون معي في هذا الموقف مقتنعون بالأسباب التي أبديتها في رفض طلبات وزير الإسكان.

كان هذا فيما أذكر في يناير سنة ١٩٧٤، وبعدها نسيت الموضوع، وانشغلت بأعمال كثيرة منها وضع امتحان الثانوية العامة لدور يونيو سنة ١٩٧٤ في الرياضيات، ومنها الإعداد لسفري إلى بريطانيا لمدة ستة أشهر – من مايو إلى أكتوبر – كأستاذ زائر في إحدى جامعات بريطانيا.. حتى كان يوم جمعة خلال شهر مارس سنة ١٩٧٤ خرجت فيه مع أسرتي لقضاء النهار في "برج المنوفية" وتناول الغداء هناك.

وعندما عدنا بعد الظهر أخبرنا الجيران أن سيارة من رئاسة الجمهورية جاءت تسأل عني مرتين، وأن رجلا بالسيارة ترك لدى الجيران ورقة لتسليمها لي، وعندما فتحت الورقة وجدت أنها من مكتب الريس ومكتوب عليها بالحبر "رجاء الاتصال بأرقام التليفونات..، ثم توقيع غير واضح. وأدرت قرص التليفون بأحد هذه الأرقام وقلت: "أنا فلان.. ماذا تريدون مني؟، وعرفت أن الذي يرد على التليفون هو

رجل قال عن نفسه أنه العقيد رءوف، وأنه يريد أن يعـرف متى يرسلون سيارة من الرئاسة لحضوري إلى منزل الرئيس لأن جمال لديه أسئلة في الرياضيات يريد أن يسألني فيها؟

وامتلأت نفسي بالغضب وقلت لمحدثي وأنـا أحـاول أن أضبط أعصابي، إنك لا شك لا تعلم أن أستاذ الجامعة يحـال إلى مجلس تأديب إذا أعطى دروسا خاصة".

قال في برود: "لا أعرف".

وقلت: "أنا واثق من ذلك.. وواثق أيضا أنك لا تعـرف أنني واضع امتحان الثانوية العامة!.

قال في برود أيضا: "لا.. لا أعرف، وأعطيته اسم أحـد المدرسين الأوائل بالمدارس الثانوية ليتصلوا به حتى يجيـب عن أسئلة جمال السادات في الرياضيات، ووضعت السماعة.

لكني بقيت في ثورة غضـب طـوال الليـل، وحاولـت المرحومة زوجتي أن تهدئ من غضبي، وفي الصباح ذهبت إلى وزير التعليم.. المرحوم الأستاذ علي عبد الرازق لأخبره بما حدث ولأعرف منه إن كان على علم بهذه المهزلة أم لا.

لقد كنت ومازلت أكن لهذا الرجل محبة، لسابق معرفتي به، ولم أكن أتصور أن يكن له صدا بهذا الموضوع، ولقـد

أثنى الرجل على موقفي، لكني وجدته يحـاول أن يقنعنـي بالذهاب مرة واحدة إلى منزل السادات لتقييم "الولد" كما قال: فأمه منزعجة بسبب حالته وهي تخشى عليه من الرسوب في الامتحان ولا تعرف ماذا تصنع!

وفهمت من الوزير أنها كثيرة الاتصال بـه فـي هـذا الموضوع، وأنه يشعر بحرج شديد.

قلت له:

"لماذا لا ترسل لهم أحد مفتشـي الـوزارة أو مـديريها الأوائل لتقييم الولد، إن كانت المسألة مجرد تقييم، إنني أريد أن أعرف من الذي أعطاهم اسمي بالذات".

قال الوزير:

"إن اسمك موجود على الكتب، والكل يعرف انك تـزور المدارس كثيرا لمتابعة مشروع الرياضيات المعاصرة الـذي بدأ مع اليونسكو.

وصممت على رفض طلب الوزير وقد حاول أن يستخدم معي حججا أخرى، فقد قال:

"إن السادات خارج من حرب أكتوبر، وليس لديه وقـت للإشراف على الولد".

وضحكت، وقلت:

"هل تريد أن تقنعني أن السادات لو لم يكن خارجا مـن حرب أكتوبر لساعد ابنه في الرياضيات؟ إننـي بصـراحة لا أتوقع من وزير التعليم أن يطلب مني هذا الطلب".

وانصرفت من مكتب الوزير حزينا وتملكني الشعور بأن ما حدث بالأمس ليس إلا المحاولة الثانية، بعد فشل المحاولة الأولى في اختصار المناهج بشدة على يد اللجنة الوزاريـة، وكان أشد ما أحزنني هو الشعور بأن مصر تدار كعزبـة.. وعلى الخولي والتملى والأنفار أن يكونوا في خدمات السـيد صاحب العزبة، وأن الحديث عن سيادة القانون هو عبث في عبث.

ولم يمض على هذه الواقعة أكثر من شهر حتـى حـدث تعديل وزاري! وخرج المرحوم علي عبد الرازق من وزارة التربية والتعليم، وعين دكتور مصطفى كمال حلمي مكانه في أبريل سنة ١٩٧٤، وذهبت إليه مهنئا كصديق قديم – لكننـي حكيت له القصة بأكملها وسألته إن كان يعرفها فقال إن هـذه أول مرة يسمع بها، قلت على الفور:

"على أية حال رويت تلك القصة حتى لا يحاولون معك".

كان هذا في أبريل سنة ١٩٧٤ ولم يبق علـى امتحـان الثانوية العامة المصرية غير شهرين، وقد عرفت بعد ذلـك أن شخصا ما تقدم لهم بالحل العبقري.. وهو إخـراج ابـن السادات من امتحان الثانوية العامـة المصـري، وإدخالـه امتحان الثانوية الإنجليزية في يونيو، حيث لا يوجد امتحـان في اللغة العربية، وحيث امتحان الرياضيات هو امتحان فـي الضرب والقسمة!

أما من هو الشخص لم أعرف.. ومنذ ذلك الحين اكتشف أبناء القادرين وتلاميـذ المـدارس الخاصـة مـا اكتشـفه ابن السادات عام ١٩٧٤، وهو أن هناك بابا خلفيـا لـدخول الجامعات المصرية حتى ولو كنت لا تعرف أي شيء عـن لغتك القومية، كما لا تعرف شيئا في الرياضيات، وهذا الباب الخلفي يدعى "الثانوية الإنجليزية".

فمتى يتحرك وزير التعليم لتصـحيح هـذه الأوضـاع المشينة..

الباب الثاني

شخصيات في حياتي

ذكريات مع طه حسين

رغم أنني لم أكن من تلاميذ طه حسين وحوارييه، رغـم أن عدد مرات لقائي معه لم تزد على أصابع اليد الواحد، إلا أنني أحسست منذ شهور برغبة عارمة في أن أكتب عنه في هذه الذكرى الأخيرة. فطه حسين واحد من القلائل من جيـل كبار كتاب ومفكري عصر الحديث الذين اختلفت معهم فكريا وإن كنت أحببتهم، وظل هذا الحب والإعزاز كامنا في القلب والضلوع على طوال السنين.

ولقد نشأت وترعرعت في ظل عائلة بسيطة ذات ميـول وفدية، وتفتحت براعم ذهني في الثلاثينات على اسـم طـه حسين كأسطورة شبه مقدسة، لا لأنه صاحب دعوة "التعلـيم كالماء والهواء" فحسب، ولا لأنه صاحب "الأيام" التي هزت وجدان صباي فحسب، ولا لأنه كـان كاتبـا وفـديا كبيـرا فحسب، وإنما لأنه فوق كل شيء مثقـف مصـري صـادق الوعد لا يفصل بين تفكيره ومواقفه العملية، مستعد للتضحية من أجل عقيدته الديمقراطية ودفاعه عن الشعب.

فقد كان طه حسين العدو اللدود لـدكتاتور مصـر فـي الثلاثينات إسماعيل صدقي، فصله من منصبه كعميد لكليـة الآداب فلم يتراجع العميد عن موقفه.

كان طه حسين مفكرا مناضلا عندما تراجع آخرون مـن المثقفين وآثروا السلامة!

ولعل من الأسباب التي دعتني إلى الكتابة عنه هذا العام أنني قرأت منذ شهور كتاب زوجته السيدة سوزان طه حسين عنه بعنوان "معك" ولقد هزني الكتاب بشدة، هزني عاطفيـا لجمال المشاعر الإنسانية التي عبرت فيه السيدة الفاضـلة – وبأسلوب شاعري أنيق – عن عواطفها تجاه زوجها المفكـر الكبير، لكن الكتاب أفزعني في نفس الوقت!

فمن يقرأه قد يخرج بانطباع أن طه حسين كـان مفكـرا فرنسيا وليس مصريا من صميم ريف مصر وطينة فقرائها. ولست أستطيع أن ألومها كثيرا في ذلك لأنها تكتب عما رأته من طه حسين في داخل منزلهما ورحلاتهما الصـيفية فـي ربوع أوروبا، ولقاءاته مع المفكرين الغـربيين، كمـا أنهـا بطبيعة كونها فرنسية الأصل كانت معزولة عن كثيـر ممـا يجري خارج المنزل من طه حسين وله.

إن الذين كتبوا عن طه حسين في السنين الأخيـرة لـم يبرزوا جانبا أساسيا في شخصيته، أعني ولاءه لشعب مصر، وعندما أذكر هنا شعب مصر فإنما أعني جمـاهير فقرائهـا الذين يمثلون الغالبية الساحقة لهذا الشعب. ولقد بـرز هـذا الولاء على النطاق الوطني في كتبه وعلى الأخـص كتـاب "المعذبون في الأرض" كما برز في سياسته التعليمية عنـدما كان مستشارا لوزارة التربية والتعليم أولا ثم عنـدما كـان وزيرا للتعليم بعد ذلك، ومن أجل هذا الـولاء خـاض طـه حسين معارك كثيرة – فكرية وشخصية – وتحمـل كثيـرا، وكان القصر آنذاك في طليعة الناقمين عليه بسـبب مواقفـه الديمقراطية في التعليم وبسبب كتاب "المعذبون فـي الأرض" حتى أن فاروق تردد كثيرا في تعيينه وزيرا للتعلـيم عنـدما عادت وزارة الوفد في يناير سنة ١٩٥٠ إلـى الحكـم أثـر انتخابات عامة عبرت فيها الجماهير عن إرادتهـا الحازمـة بشكل ساحق.

وكل هذا معروف بطبيعة الحال وموثق تاريخيـا، لكـن ما لا يعرفه الكثيرون أن طه حسين كـان علـى المسـتوى الشخصي راعيا ومشجعا لكثير من شباب مصر المغمورين،

دافعا لهم لمزيد من التعليم، سعيدا بهم سـعادة الأب بأبنائـه حتى عندما كانوا يختلفون معه!

ولقد شاءت الظروف أن أكون واحدا من هؤلاء، لم أقصد هذا قصدا ولم يقصده، ولم يكن يخطر في بالي وأنـا شـاب صغير مغمور أنني سألتقي يوما من الأيام وجها لوجه مـع هذا "الجبار" كما كانوا يسمونه في محيطنا ثم كان أول لقـاء لنا منذ واحد وثلاثين عاما، وبالتحديد في يناير سنة ١٩٥٠.

كان طه حسين وزيرا جديدا للتعليم، وكنت معيدا بكليـة العلوم بجامعة الإسكندرية، وقد تم وقفي لعـدة شـهور مـع غيري من المعيدين بجامعتي القـاهرة والإسـكندرية إبـان وزارتي النقراشي وإبراهيم عبد الهادي، وخلال عام ١٩٤٩ كانت معتقلات مصر في الهايكستيب وأبـو قيـر والطـور ممتلئة بألوف الشبان من طليعة الوفد والإخـوان المسـلمين والتقدميين، وعندما جاءت وزارة الوفـد أول عـام ١٩٥٠ أطلقت سراح الجميع.

وعدت إلى جامعة الإسكندرية لاسـتلام عملـي، لكنـي فوجئت وغيري بتلكؤ الجامعة في قبول عودتنا لعملنا، وبدأت الشائعات تقول أن مدير الجامعة ـ وكـان معروفـا آنـذاك

بصلته بالقصر - يريد أن ينقلنا إلى التعليم العام، وأن عميـد الكلية متواطئ معه في هذا الأمر، وران اليأس علـى قلبـي واستبد بي الظلام. ماذا أفعل؟

ركبت أول قطار إلى القاهرة قاصدا مكتب وزير التعلـيم وطلبت مقابلته لشرح الأمر له، وكانت الوزارة تعج بمئـات القادمين للتهنئة وقضاء الحاجات، ولم أكن أطمع فـي هـذه الظروف - وأنا بلا واسطة - في أكثر من تحديد موعد لـي بعد أسبوع على أقل تقدير، لكن ما بهرني أن طـه حسـين طلبني للقائه بعد نصف ساعة من وجودي في مكتبه، واستمع إلي طويلا ولم ينبس ببنت شفة طوال حديثي، ثم أشار إلـى سكرتيره أن يأخذني إلى مكتبه وأن يطلب له مـدير جامعـة الإسكندرية على الهاتف، ولست أدري بطبيعة الحال ما جرى بينه وبين مدير الجامعة، لكنه طلبني مرة أخرى بعد انتهـاء الحديث ولم يزد على أن قال: "عد إلى الإسـكندرية واسـتلم عملك في الجامعة". وقد كان..

حاولت أن أشكر طه حسين بكلمات متلعثمة وأنا أنسحب من غرفته. وعندما ذهبت إلى الإسكندرية كانت الشائعات قد سبقتني إليها، عن هذا اللقاء وعن حديث طه حسين مع مدير

الجامعة، حتى قال أحد أساتذة الجامعة أنه عرف أن حـديث الوزير لمدير الجامعة كان حادا وأنه قال له "الحق أحـق أن يتبع يا صادق بك"!

بعد تسعة أشهر من هذا اللقاء سافرت في بعثة دراسـية إلى بريطانيا للحصول على الدكتوراه في الرياضيات، وعدت في سبتمبر سنة ١٩٥٢ بعد حصولي عليها من جامعة لندن، وبعد أن قامت ثورة يوليو في نفس ذلك الصيف، ولـم أكـد أصل إلى القاهرة حتى سعت كلية العلوم بجامعة القاهرة إلى نقلي إليها من الإسكندرية لحاجتها إلى تخصصي، وتم هـذا في نوفمبر عـام ١٩٥٢، وهكـذا بـدأت حيـاتي العلميـة والصحفية في القاهرة.

في ظل الشهور الأولى لثـورة يوليـو كانـت الحريـة الصحفية واسعة نسبيا، وكنت قد بدأت – مع التـدريس فـي جامعة القاهرة – أكتب مقالات في قضايا الأدب والفكر فـي جريدة "المصري" التي كانت تخصص صفحتها الأخيرة كـل يوم أحد لقضايا الأدب والفكر.

ولم أكن أعلم أن طه حسين كان يقرأ هذه المقالات وأنه كان يضيق ببعضها حتى كان لقاؤنا الثاني بمنزله بالزمالك عام ١٩٥٣.

قبل هذا اللقاء بشهور كنت قد انتقلت من الكتابة في صحيفة "المصري" إلى الكتابة في مجلة "روز اليوسف" بعد مقال طويل كتبته عن قصص إحسان عبد القدوس، ومع أن هذا المقال لم يكن مزكيا لأدب إحسان، إلا أن سعة أفقه في العمل الصحفي جعلته يطلب التعرف إلي، ثم طلب مني أن أكون أحد كتاب روز اليوسف، وهكذا كان..

وعندما انتقل فتحي غانم من روز اليوسف إلى أخبار اليوم سألني إحسان أن أكتب أسبوعيا باب "أدب" الذي كان فتحي غانم يتولى تحريره قبل انتقاله، وبدأت أكتب الباب أسبوعيا، وكان من بين ما كتبته آنذاك مقال تضمن هجوما على كتاب جديد صدر لتوفيق الحكيم لاتجاهه الفكري السلبي. ولست أذكر الآن اسم الكتاب ولكن أذكر أنني قلت في هذا المقال: "إن توفيق الحكيم يجلس على قمة المستوى المائل، وأنه ينحدر!" وأذكر أن هذا المقال آثار ضجة لدى الكثيرين من محبي أدب توفيق الحكيم، وأن أحدهم رد على

مقالي بمقال في "روز اليوسف" ولعل كاتبه كـان الصـديق العزيز بدر الدين أبو غازي وزير الثقافة الأسبق.

لقد أسهبت في وصف ظروف كتاباتي آنذاك لأن هذا كله وثيق الصلة بلقائي بطه حسين، وبما دار في هذا اللقاء مـن نقاش، أما أسباب هذا اللقاء نفسه فكانت أيضا غريبـة وذات دلالة في مواقف طه حسين رغم أن الموضـوع كـان فـي أساسه شخصيا وليس عاما.

لقد جاءني زميل لي في الجامعة، كان ولا يزال من أبرز أساتذة الرياضيات في مصر، في أحـد أيـام عـام ١٩٥٣ وسألني إن كنت أعرف طه حسين، وقلت له إنني لم أر طـه حسين غير مرة واحدة في حياتي وأغلب الظن أنه قد نسيني، وشرحت له ظروف هذا اللقاء. ولما سألته عن سبب السؤال عرفت أنه كان قد تقدم إلـى جـائزة "أمـين لطفـي" فـي الرياضيات وأن طه حسين عضو في اللجنة التـي سـتقرر الفائز لها، وأن لديه معلومات مؤكدة أن بعض أعضاء اللجنة من رجال وزارة التعليم يبيتون النية على منحها لشخص آخر وثيق الصلة بالسلطة ذكر لي اسمه وأنا أعلم عن ثقة بطبيعة تخصصي أن هذا الآخر لا يستحقها.

واستعنت بإحسان عبد القدوس لكي يطلب لي موعدا مع طه حسين، وتم تحديد الموعد في اليوم التالي الساعة الحادية عشر صباحا.

كان محمود النحاس – مدير الأوبرا آنذاك – حاضرا في هذا اللقاء، وشرحت لطه حسين قلق زميلي مما يبيت له من بعض رجال التربية والتعليم، وقناعتي الشخصية بامتياز هذا الزميل في البحوث الرياضية قلت لـه "إنني أترك لك الموضوع بأكمله واثقا من أنك سوف تنصف صاحب الحق".

أنصت طه حسين لكل ما قلته، وأنا أشعر بالارتباك والهيبة في حضرته، ثم قال: "قل لصديقك هذا أنه لن يظلم مادمت في هذه اللجنة"، وهذا ما تم بعد ذلك فقد منحت الجائزة له في نهاية الأمر.

غير أن طه حسين انتهز فرصة هذا اللقاء لمشاغبتي حول ما أكتبه في قضايا الفكر والأدب، وبدأ سائلا لي: "ما علاقتك بالأدب وأنت أستاذ في العلوم" وشرحت لـه أنني نشأت في عائلة كثير من رجالها يحبون الأدب ويتولون تدريس اللغة العربية بالمدارس ويهوون الشعر بالذات، وأنني لم أشذ عن هذا التقليد إلى درجة أنني ترددت فترة عند

التحاقي بالجامعـة بـين الالتحـاق بكليـة الآداب أو قسـم الرياضيات بكلية العلوم، وأنني كنت في شبابي المبكر شاعرا فاشلا!.

ثم تجرأت وسألته رأيه فيما أكتب! قال: "ينبغي أن تزيـد من قراءاتك وألا تكن ضيقا في نظرتـك، إنكـم تتياسـرون وتظنون أنى على يمينكم، هل كتب أحدكم شيئا كالمعذبون في الأرض!".

ولقد خرجت من هذا اللقاء الثاني متيقنا أنه ما زال يذكر لقاءنا الأول منذ ثلاثة أعوام، وأنه تصرف معـي تصـرف الأب الرحيم عندما يزجر واحدا من أبنائه ويرده إلى ما يعتقد أنه الصواب، وأنه كان سعيدا لأنه يرى أحد أبنائه ناجحا في السلك الجامعي، مهتما بقضايا الفكر والأدب.

ولم يدر بخلدي آنذاك أن اللقاء الثالث سوف يتم بعد ذلك بشهور قليلة، وبالتحديد في مارس سنة ١٩٥٤، فـي نـادي القصة وفي حضور نجيب محفوظ ويوسـف غـراب وداود سكاكيني وآخرين لا أذكرهم الآن، وأنه سوف يكـون لقـاء عاصفا! لكن لذاك قصة أبدأ الآن في شرحها من بدايتها..

كانت جريدة "الجمهورية" – لسان حال الثورة – قد صدرت عام ١٩٥٣، وكان طه حسين في أبرز كتابها، له مقال أسبوعي يتابعه المثقفون بشغف في قضايا الأدب والفكر وفي فبراير من ذلك العام كتب طه حسين مقالا بعنوان "صورة الأدب ومادته" قدم فيه النظرة النقدية للمدرسة التقليدية في الأدب، وتقوم هذه النظرة على أن اللغة هي صورة الأدب وأن المعاني هي مادته وإن كان قد أضاف إلى هذين العنصرين عنصرا ثالثا سماه "عنصر الجمال" لم يوضح نظرته إليه.

وتمنى طه حسين في ختام مقاله عن الأدباء الشبان أن يوضحوا رأيهم ونظرتهم النقدية في الأدب، وأحسست عند قراءتي لمقال طه حسين كأنه يوجه لي تحديا شخصيا، وتذكرت ما قاله لي بمنزله بالزمالك في لقائنا الثاني.

واتفقنا – محمود العالم وأنا – على أن نرد على طه حسين ردا مهذبا ومطولا في جريدة "المصري" نشرح فيه وجهة نظرنا، وأوجه خلافنا مع نظرته ونظرة جيله من الكتاب ولخصنا في ختام هذا المقال وجهة نظرنا على النحو التالي:

اولا: إن مضمون الأدب (أو مادته) ليس المعاني وإنمـا هو في الجوهر الأحداث التي تجري في العمل الأدبـي، وأن هذه الأحداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية الدلالة.

ثانيا: إن صورة العمل الأدبي (أو صياغته) ليست هـي الأسلوب وإن كان الأسلوب عنصرا من عناصر الصـورة. فالصورة عملية تشكيل هذا المضمون وجوانـب الإضـاءة والظلال فيه، إنها عملية إبراز عناصر هذا المضمون وتنمية مقوماته.

ثالثا: أن تحديـد الدلالـة الاجتماعيـة للعمـل الأدبـي لا يتعارض مع تأكيد قيمة الصورة أو الشكل الأدبـي، بـل على العكس قد يساعد على الكشف عن كثير من أسرار هذا الشكل.

رابعا: أن النقد الأدبي – على هذه الأسس – ليس دراسة لعملية الصياغة في صورتها الجامدة فحسـب، وإنمـا هـو استيعاب لكافة مقومات العمل الأدبي ما يتفاعـل فيـه مـن أحداث وعلاقات، وبهذا يصـبح الكشـف عـن المضـمون الاجتماعي ومتابعة عملية الصياغة مهمة واحـدة متكاملـة للناقد الأدبي.

وبطبيعة الحال ضـربنا أمثلـة مـن الأدب الأوروبـي والمصري لتوضيح وجهة نظرنا، وانتظرنا رد فعـل طـه حسين لمقالنا، وجاء رده على صفحات الجمهورية في مقـال بعنوان "يوناني فلا يقرأ" قال فيه: إنه لم يفهم شيئا مما نعنيه، وأن ما كتبناه لا يخرج أن يكون كلاما يونانيـا كمـا يقـول الأوروبيون! ثم سألنا عن رأينا في أدب الطبيعة ومـا هـي دلالته الاجتماعية يا ترى؟!

حتى هذا الحد كان الحوار مقبولا وكنا على استعداد لأن نكتب بشكل أكثر تفصيلا نوضح فيه ما نعنيه، وإن كان قـد ساورنا الشك أن طه حسين كان يفهم ما نعنيه وأنـه أراد أن يدعي غير ذلك!

غير أن الأمور في هذا الحوار تطـورت بشـكل غيـر متوقع، بدخول عباس العقاد ساحة النقاش بمقال مطول فـي "أخبار اليوم" عنوانـه: "إلـى أدعيـاء التجديـد.. اقـرءوا ما تنتقدونه"! ومع أننا لم نتعرض في مقالنا بأنه موجه ضده شخصيا، وهكذا كان رده، واستفزازيا وساخرا وعنيفا ومليئا بالغمز واللمز حول ميولنا السياسية.

وفي حماس الشباب وعنفوانه لم نملك إلا أن نكتب ردا أشد عنفا واستفزازا كان عنوانه "عبقرية العقاد". ومع أن المقال كان في معظمه مناقشة في قضايا الأدب إلا أنه امتلأ بالغمز واللمز عن قصائد العقاد في مدح الملك فاروق ومقالاته في جريدة "الأساس" ضد الشيخ حسن البنا ودور الإنجليز في كتابه "هتلر في الميزان".

وفي هذا الجو المحموم، وبعد صدور مقال "عبقرية العقاد" بيومين ذهبت إلى نادي القصة ولم أكن أدري أنني في طريقي إلى لقاء عاصف مع طه حسين!

أحسست منذ أول وهلة وأنا أسلم عليه بأنه غاضب، ولم أكد أجلس على أحد مقاعد الغرفة حتى بادرني قائلا "أنا زعلان منك.. كيف تسمح لقلمك أنت وصديقك أن يشتد في الهجوم على الأستاذ العقاد إلى هذا الحد؟".

قالت السيدة وداد سكاكيني وكانت من حضور هذه الجلسة: "البادي أظلم يا باشا" وقال نجيب محفوظ جملة أو جملتين في محاولة لتهدئة غضب طه حسين.

وبهت برهة ثم بدأت أشرح وجهة نظري في الموضوع كله، لكنه لم يقتنع ولم يكن في الحقيقة منصتا لما أقول،

وأشار إلي بعض الحاضـرين أن أصـمت لأنـه لا مجـال للمناقشة في مثل هذا الجو.

وخرجت من نادي القصة حزينا مهموما لأنني لم أكـن أحب أن أراه غاضبا إلى هذا الحد، ثم خطر لي بعد ذلك أن أكثر ما ضايقه هو غمزنا للعقاد في قصيدته التي مدح بهـا فاروق، فقد كان لطه حسين خطاب معـروف فـي افتتـاح جامعة الإسكندرية – وفي حضور فاروق – امـتلأ بمـدح الملك ومدح أسرته. ولعل هذا التفسير قد أراحني نفسيا إلـى حد كبير، ولم أيأس في أن تصفو نفسه بعد هدوء العاصفة.

وأحسب أني لقيت طه حسين بعد ذلـك بسـنوات مـرة أو مرتين في مناسبات خاطفة لم نتبادل فيها كلامـا كثيـرا، لكن ما أدهشني بعد ذلك أن أعلم أنه كان يتـابع مـا أكتـب متابعة الأب لأحد أبنائه، وكان يسأل عني كلما جمعته لجنـة الترجمة في المجلس الأعلـى للفنـون والآداب أو جلسـات المجتمع اللغوي بواحد من أشقائي.

ومضت سنوات طويلة لازم فيها طه حين بيتـه بسـبب مرضه، وخطر لي أكثر من مرة أن أذهب لزيارته، لكنـي

تراجعت بعد ذلك لأنني لم أكن متيقن أن العلاقة بيننا تسـمح لي بهذه الزيارة.

ثم جاء النذير بالنبأ التعيس.. نبأ وفاته في أكتـوبر عـام ١٩٧٣، وأحسست بغم ثقيل، وتملكتني كآبـة داميـة أيامـا، وعندما مشيت في جنازته التي خرجت من جامعة القـاهرة لم أكن أحس أن مصر فقدت رجلا مـن كبـارات رجالهـا ومفكريها فحسب، وإنما كنت أحس أنني فقدت إنسانا عزيزا على نفسي قريبا من قلبي، على الرغم من أنني لم أقابله غير مرات معدودة لا تزيد على أصابع اليد الواحدة، وعلى الرغم من خلافنا في الفكر.

الطريق المسدود

منذ أيام كتب الأستاذ توفيق الحكيم يصف روايات الأستاذ إحسان عبد القدوس قائلا: إنها القصة ذات المفتـاح. وهـو يعني بذلك أن الرواية كثيرا ما تنطوي على مبدأ معين، فكرة معينة.. وحينما تدرك من أحداث الرواية هذه الفكرة تكون قد فتحت الباب إلى فهم القصة فهما صحيحا.

وإحسان مغرم بالقصص ذات المفتاح، ولكنه فوق ذلـك مغرم بوضع مفتاح كل قصة من قصصه على صورة شعار

معين، فمثلا في رواية "الطريق المسدود" يقدم لنا إحسان منذ البداية وقبل أن نعرف أحداث الرواية الشعار التالي:

"إن الخطيئة لا تولد معنا ولكن المجتمع يـدفعنا إليهـا". وهذا هو (في تقديره) مفتاح قصته.

فلنتخذ إذن من مناقشة هذه المسألة نقطة بدء..

أولا: يعتبر تقديم "مفتاح القصة" في البداية خطـأ فنيـا واضحا، فالمفروض أن الروائي يقودنا، نحن قـراءه، فـي طريق أوله مجهول ووسطه غموض وآخره وضـوح عنـد القارئ اللبيب.

ثروت عكاشة وأنا

أسعدني تماما ما فعلته الدكتورة سعاد الصباح – التي أحمل لها كل تقدير منذ لقائنا في ندوة للأمم المتحدة منذ سنوات طويلة – من تكريم للدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة الأسبق. ففضل هذا الرجل على الثقافة في مصر طوال سنوات وزارته لا يمكن إنكاره إلا لجاحد. وأنا شخصيا أحببت هذا الرجل طوال حياتي وطوال الأيام التي عرفته فيها، قد عملت تحت رئاسته عاما كاملا (من نوفمبر سنة ١٩٦٧ حتى نوفمبر سنة ١٩٦٨) كنت فيها معارا من الجامعة كرئيس مجلس إدارة شركة الكاتب العربي للطباعة والنشر، فكان كريما غاية الكرم في تعامله معي حتى عندما كنا نختلف في الرأي، وكان من عادته أن يعقد اجتماعا أسبوعيا في مكتبه يحضره كل رؤساء المؤسسات والشركات التي تتبع وزارة الثقافة، من جهابذة المثقفين المصريين: نجيب محفوظ، عبد الرزاق حسن، محمود أمين العالم، سهير القلماوي، سعد وهبة، سعد كامل، علي الراعي.. الخ.

ولقد عرفت ثروة عكاشة قبل الثورة، إذ كنا من شباب حي العباسية، ومع أنها كانت معرفة عابرة، إلا أنها تجددت بعد الثورة، عندما كان هو الملحق العسكري لمصر في

باريس، وكان سكرتيره الخاص آنذاك أحمد طرباي – أحـد شباب الطليعة الوفدية – الذي توثقت علاقتي به عندما كنـا سويا في معتقل الطور عام ١٩٤٩.

وعند عودتي من بريطانيا إلى القاهرة في صيف ١٩٥٤، مررت بباريس وقابلني أحمد طرباي ودبر لي لقاء ثـروت عكاشة في مكتبه الذي سألني عن الأحوال في مصر فتحدثت معه بصراحة، والغريب أنني عندما قابلته في بـاريس فـي أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ لم أكن على علم أن قـرارا مـن مجلس قيادة الثورة بفصل ٤٢ أستاذا من الجامعة كـان قـد صدر وأنني واحد من المفصولين، ولم أعلـم بهـذا القـرار إلا عند وصولي إلى الإسكندرية.

ولقد انقطعت صلتي بثروت عكاشة حتى وقعت كارثـة يونيو سنة ١٩٦٧، فقام بدعوة عدد من المثقفين إلى اجتمـاع في مكتبه، وكنت واحدا منهم وأتذكر من الحاضرين يوسـف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي ومحمـود العـالم وعلـي الراعي وآخرين، وكنا جميعا في غاية الثورة علـى حجـم الهزيمة وعلى الخديعة التي مررنا بها جميعا عـن أحـوال الجيش المصري، وكان ثروت عكاشة صبورا مع صراحتنا

التي تحدثنا بها، وقد خرجنا من هذا الاجتماع باتفـاق علـى عقد اجتماعات أخرى، لكن هذا لم يحدث.

حتى جاء شهر نوفمبر عـام ١٩٦٧، وكنـت أحاضـر كالعادة يوم الخميس في كلية العلوم بجامعة عين شمس عندما فتح الباب وإذا بأحد سعاة الكلية يقول لي إن مكتـب وزيـر الثقافة على التليفون، واستأت من دخوله هكذا، وقلت لـه أن يبلغهم بأنني سوف اتصل بهم عندما تنتهي محاضرتي.

وبالفعل أبلغني د. ثروت عكاشة عنـدما اتصـلت بـه ضرورة حضوري فورا إلى مكتبه لأمر مهم، وعندما قابلته أبلغني بأنه قابل الرئيس عبد الناصـر فـي اليـوم السـابق وعرض عليه ترشيحات وزارة الثقافـة وأن عبـد الناصـر اقترح اسمي رئيسا لمجلس إدارة الكاتب العربـي للطباعـة والنشر بدلا من الأستاذ محمود العالم الـذي عـين رئيسـا لمؤسسة المسرح.

وحاولت أن أعتذر قائلا إنني أفضل عملي بالجامعة على أي عمل آخر، فقال لي: "إنك لا تستطيع أن تعتـذر، فهـذا توجيه من الرئيس". قلت: "إذن: ليكن هـذا التعيـين بمثابـة إعارة من الجامعة لمدة عام أجرب فيها عملي الجديد، وبعدها

يكون لكل حادث حديث" ووافق على ذلك وقد تبين بعد ذلك أنه كان قد حصل على موافقة وزير التعليم العالي دون أن تعمل الكلية أو الجامعة شيئا عن هذه الإعارة.

وقد حاولت إنقاذ هذه الشركة من ظروفها المالية السيئة وأعدنا تنظيم العمل في مطابعها، واستعنت بعلاقتي القديمة بوزير الخزانة – الدكتور نزيه ضيف – للحصول على قرض للشركة يساعدها على دوام نشاطها في النشر، وتعاقدت مع وزارة التربية والتعليم في ليبيا لطبع كتب مدرسية بحوالي ربع مليون جنيه استرليني فضلا عن نشاط الشركة في نشر الكتب والموسوعات، وبعد انتهاء العام تمسكت بإنهاء إعارتي وعودتي إلى الجامعة مرة أخرى.

***

إن السبب الذي دعاني إلى كتابة هذا المقال الذي أعبر فيه عن سعادتي بتكريم ثروت عكاشة، هو أنني أحسست منذ صدور كتابه "مذكرات ثروت عكاشة" وما كتبته من مقالين آنذاك عن هذه المذكرات في صحيفة "الأهالي" بأنه – أي ثروت عكاشة – غاضب مما كتبته، وقد اتصل آنذاك بالأستاذ خالد محيي الدين في ثورة عارمة وهدد برفع دعوى

ضد جريدة الأهالي وضدي، وحاول خالد محيي الدين كمـا حاول الأستاذ حسين الشافعي إقناعه بأن ما كتبته لا يحـوي أي طعن فيه، لكنه كان تحت فكرة متسلطة عليه قوامهـا أن ما دفعني إلى كتابة ما كتبت هو الصديق محمـود العـالم – وثيق الصلة بشعراوي جمعة وزير الداخلية الأسبق – الـذي يحاول الإساءة إلى اسم ثروت عكاشة.

ونظرا لأهمية الموضوع ولأن الموضوع قد أحاطه سوء الظن من أوله إلى آخره. ولأننا – ثروت عكاشـة وأنـا – نقترب من أيام عمرنا الأخيرة، رأيت أن أكتب للتاريخ هـذه الكلمة أشرح كيف وقع سوء الظن هذا الذي لم يكن لمحمـود العالم أي دخل فيه. عندما نشر ثروت عكاشة مذكراته كـان من الطبيعي أن يتطلع إلى تعليق من جريدة الأهالي عليهـا واتصل بخالد محيي الدين – وهو صديق عمره في سـلاح الفرسان – يسأل عن ذلك الذي اتصل بدوره بالأهالي فقال له رئيس التحرير إنه اتفق معي على الكتابة عن هذه المذكرات، ثم قابلني خالد محيي الدين في عزاء أحد الأصدقاء وقال لي إن ثروت عكاشة يسأله عن هذا الموضوع فاستمهلته حتـى انتهي من محاضراتي في الجامعة، ثم أكتب التعليق.

وبالفعل كتبت مقالين عن هذه المذكرات أشدت فيهما بجهوده في ميدان الثقافة، لكن لفت نظري فيها أمران: أولهما اختلاط بعض التواريخ على الدكتور عكاشة. وهذا أمر طبيعي يحدث لنا جميعا، فحاولت تصحيح بعض هذه التواريخ. أما الأمر الثاني الذي لفت انتباهي – وكنت خالي الذهن تماما عنه – فهو الإشارة في هذه المذكرات إلى محاولة جر اسم الدكتور عكاشة إلى قضية صلاح نصر والمخابرات وتحقيقاتها التي جرت بعد كارثة يونيو سنة ١٩٦٧، وقد ورد في هذه المذكرات أن السادات – بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية – طلب من شعرواي جمعة – وكان لا يزال وزيرا للداخلية – طلبا يخص الدكتور عكاشة، اعتذر عنه وزير الداخلية.

كان من الطبيعي أن يلفت نظري هذا الكلام في المذكرات التي لم يكن بها أي تفصيل في هذا الموضوع، لكن الذي أثار انتباهي أكثر أنني قرأت حديثا لشعراوي جمعة في مجلة روز اليوسف – في الوقت نفسه الذي كنت أكتب فيه مقالاتي – ينفي فيه بعض ما جاء في مذكرات ثروت عكاشة.

وبالطبع أدهشني هذا ونوهت به في جملة عـابرة فـي مقالي الأول، وكنت حتى تلك اللحظة خالي الذهن تماما مـن حقيقة التوتر الذي كان قائما بين ثروت عكاشة وشـعرواي جمعة. ومن قضايا تحقيقات المخابرات بعـد عـام ١٩٦٧، ويهمني أن أوضح أنني لم ألتق بشعرواي جمعـة – وهـو وزيرا للداخلية – أبدا، وأنني كنت ألتقي به أحيانا لقاء عابرا في شوارع مصر الجديدة فيعلق على مقالاتي فـي صـحيفة الأهالي مستحسنا وذلك في مرحلة الثمانينيات.

لم أدخل التنظيم الطليعي!

بمعنى آخر لم تتوافر لي علاقة بشعراوي جمعة ولا بأي قطب ناصري عندما كانوا في السلطة، كما أنني لم أدخل في التنظيم الطليعي. ولذلك فإن ما تصوره الدكتور عكاشة مـن أن إشارتي المقتضبة إلى بعض ما لفت نظـري فـي هـذه المذكرات هو من تحريض محمود أمين العالم بإيعـاز مـن شعرواي جمعة رئيسه في التنظيم الطليعي هو محض خيـال يعلم الله أن محمود العالم بريء منه تماما، وإنني لم أكن على علم بخلفيات هذه الأمور عندما أعدت مقـالي للنشـر فـي "الأهالي" لكن الأمور تطورت بعد ذلك. فقـد اتصـل بـي

شعراوي جمعة تليفونيا بعد ظهور مقـالاتي فـي الأهـالي ورجاني أن أمر عليه في منزله بشارع نزيـه خليفـة أمـام حديقة الميرلاند في مصر الجديدة.

وقد مررت عليه الساعة الثانية ظهرا – وكنا في شـهر رمضان فيما أذكر – وشرح لي شعراوي جمعة وجهة نظره فيما قيل من توتر بينه وبين د. ثروت عكاشة.

وخرجت من منزله وقد اكتشفت مدى جهلي بأشياء عديدة تتعلق بالسلطة في مصر أيام المرحلة الناصرية وما بعـدها. ولقد كتبت ما كتبت في مقالات الأهـالي دون أن أعلـم أي شيء عن هذه القضايا. وإنما نوهت بما لاحظته من تباينـات بين كلام وزيرين سابقين كانا يعملان في نظام سياسي واحد، كما نوهت بما بدا لي غامضا في المذكرات.

وقد انتهى الموضوع كله عندما قام الأسـتاذان حسـين الشافعي وخالد محيي الدين بإقناع الـدكتور عكاشـة بـأن المقالين اللذين نشرتهما الأهالي ليس بهما مـا يسـيء إليـه وأنني من باب أولى لم أقصد الإساءة إليه من قريب أو بعيد. ولعله اقتنع بحسن نيتي عندما كتبت وإن كنت أشك في ذلك.

ويهمني اليوم – بمناسبة الاحتفال بتكريم د. عكاشة – أن أقول إنني حملت له طوال حياتي كل التقدير في هذا العمـل الفذ الذي قام به كوزير للثقافة، وإنني أرجـو لـه موفـور الصحة والمزيد من النشاط الفكري الكبير الذي يخلد اسـمه ضمن كبار مثقفي مصر والعالم العربي، كما يهمني أن أشكر الدكتور سعاد الصباح على هذه اللفتة الكريمة التي كان مـن المفروض أن تبدأ في مصر..

ذكريات مع إحسان عبد القدوس

رأيت إحسان لأول مرة في المدرسة، مدرسة فؤاد الأول الثانوية، كان هو في السنة الخامسة أو الرابعـة – لا أذكـر بالضبط – وكنت بالسنة الأولى، وكانت هذه السنة – ١٩٣٥ – هي سنة المظاهرات ضد الإنجليز وكان حزب الوفد فـي مقدمة المحرضين على هذه المظاهرات. لكن مشكلة مدرستنا أن كان على رأسها ناظر اتسم بالحزم والشـدة (إسـماعيل القباني) فلم يكن يتردد في فصـل أي تلميـذ يـراه يهتـف بالشعارات السياسية في فناء المدرسة. وكان من الطبيعي أن يكون "الهتيفة" من تلاميذ السنة الرابعة والخامسة.

ولما زاد عدد المفصولين من تلاميـذ الصـفين الرابـع والخامس، تفتق ذهن الباقين منهم، عن حيلة حتى لا يستطيع الناظر أن يرى المسئول عن بدء الهتافات.

وتتلخص الحيلة في أن يبدأ واحد من تلاميذ السنة الأولى من القصار بالهتاف على أن يحـيط بـه تلاميـذ الصـفين الأخيرين من جميع الجوانب ويقتصر دورهم علـى ترديـد الهتاف وراءه فلا يستطيع أحد معرفة من الذي بدأ الهتـاف في المدرسة، وتطوعت أنا وغيري من تلاميذ السنة الأولـى لأداء هذه المهمة، وخرجنا إلى الشـارع وعندئـذ اصـطدم

البوليس بنا وأطلق بنادق الرش علينا فقمنا برميـه بـالطوب وكانت معركة انتهت بالقبض علي في المساء مـن منزلـي بينما نجا إحسان مع أنه كان في مقدمة المظاهرة.

ودخلت السجن لأول مرة في حيـاتي وقضـيت أربعـا وعشرين ساعة ما بين حجز قسم الوايلي وتخشيبة محافظـة القاهرة، ولم يفرج عني إلا بسبب صغر سني إذ كنـت فـي الثانية عشرة من العمر، وعندما عدت في اليوم التالي إلـى المدرسة استقبلت استقبالا حماسيا من التلاميذ.

ولابد أن إحسان كان قد تابع الأحداث وتيقن من شـكلي المميز تماما، ولأنني عندما قابلت إحسانا بعد الثـورة فـي مكتبه بروز اليوسف بعد سـبعة عشـر عامـا مـن هـذه المظاهرات وجدته يذكرني بها وبحادث القبض علي لمدة يوم كامل.

كان إحسان – تلميذا مرموقا في المدرسة، فأمه السـيدة روز اليوسف الصحفية المشهورة ووالـده الأسـتاذ محمـد عبد القدوس الممثل المعروف، بينما لم يكن أحد يعرفنا، ومع أن إحسان لم يكن آنذاك يعرفني شخصـيا إلا أننـي كنـت أعرف عن طريق أقاربي من عائلة أمي القاطنين في حـي

العباسية الكثير عنه. فقد كنت أعرف أنه يقيم مع عمته فـي شارع رضوان شكري (حيث كان يقيم نجيب محفوظ) سنين طويلة، وأنه ظل يقيم مع عمته السيدة نعمات رضوان إلى أن أنهى دراسته الثانوية والتحق بكلية الحقوق فانتقل إلى منـزل والدته.

وظللت أتابع من بعيد إحسانا في عمله الصحفي ومقالاته النارية عن قضية الأسلحة الفاسدة دون أن نلتقـي إلـى أن عدت من البعثة بعد حصولي على الدكتوراه من جامعة لندن في سبتمبر سنة ١٩٥٢. وتم تعييني مدرسا بقسم الرياضـة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة، وبدأت أكتب مقالاتي فـي الأدب في صفحة يوم الأحد بصحيفة المصري، وأذكر أنـي كتبت مقالا عن "الأدب الواقعي" تعرضت فيه بشكل جـانبي لقصص إحسان ورأيي السلبي فيها، وإذا بأحد الأصدقاء من العاملين مع إحسان في روز اليوسف يتصـل بـي تليفونيـا ويبلغني بأنه يريد أن يراني، فلما ذهبت إليـه فـي مكتبـه فوجئت به يعرض علي الكتابة بانتظام فـي روز اليوسـف وهكذا بدأت صلتي من جديد بإحسان وبالمجلة، وظللت أكتب

فيها حتى نهايات عام ١٩٥٤ وأذكر أنني قمت بتحرير بـاب "أدب" في المجلة بعد انتقال فتحي غانم إلى أخبار اليوم.

موقف لن أنساه:

لكن حدث في نهايات عام ١٩٥٤ أن أصدر مجلس قيادة الثورة قرارا بفصل ٤٢ من أساتذة الجامعات الذين عارضوا النظام بسبب قضية الديمقراطية، وكنت واحدا من المفصولين ووجدت نفسي بلا عمل فجأة وأنا صاحب أسرة. ولم يمـض وقت طويل حتى عرضت علي وظيفة مدرس بإحدى كليات جامعة لندن فقبلتها على الفور وسافرت إلى بريطانيا.. ومن هناك أخذت أرسل مقالات في قضايا ثقافية فيقـوم إحسـان بنشرها في المجلة مع أنه يعلم أنني من المغضوب عليهم من جانب السلطة.. وفي أحد الأيام وصلني منه خطاب يقول فيه إنه حزين لأنني أعمل في خدمة جامعة بريطانية بينما تحتاج مصر إلى من هم مثلي، ورددت عليه قائلا إنني سأكون أسعد إنسان إذا استطاع أن يدبر لي أي عمل في مصـر.. وبعـد وصول خطابي كتب إحسان مقالا طويلا في روز اليوسـف عنوانه (الرجل الذي سرقه الإنجليز) قال فيه عنـي كلامـا

طيبا قد لا أستحقه ودعا الحكومة إلى إعادتي إلـى جامعـة القاهرة.

وبعد نشر المقال بأيام كان إحسان في طريقه إلى باندونج في صحبة جمال عبد الناصر، الذي سأله عن المقال وعنـي فشرح إحسان وجهة نظره بالكامل. لكن عبد الناصـر خـتم حديثه قائلا: إن الشيوعيين يضحكون عليك يستخدمونك يـا إحسان! وبقيت في بريطانيا حتى أعلن عبد الناصـر تـأميم القناة في يوليو سنة ١٩٥٦ فقدمت استقالتي على الفور مـن الجامعة وقررت العودة إلى مصر، وكان إحسان واحدا مـن أسعد الناس لعودتي وتوثقت صلتنا من جديد خصوصا أننـي بدأت أعمل في صحيفة "المساء" بالقاهرة كمحـرر للشـئون العربية وأصبحت متفرغا للعمل الصحفي.

ولعل هذه الوقائع التي سردتها توضح كيف كان إحسـان مستنيرا واسع الأفق وشجاعا في الوقت نفسه في الدفاع عن رجل لا يشاركه قناعاته السياسية. وثمة مثال آخر يوضـح كيف كان واسع الأفق حتى عندما يتعلق المر بإنتاجه الأدبي: أذكر مرة أنني دعيت للاشتراك في ندوة بالإذاعة بالبرنـامج الثاني في عام ١٩٥٧ لمناقشة قصته (الطريـق المسـدود)

وكان زميلاي في الندوة هما إحسان وكامل الشناوي، وكنت قد أعددت ملاحظاتي النقدية لكي أستفيد منها في الندوة لكني أحسست بأن كامل الشناوي قد استهلك وقت الندوة كله فلـم يدع لي فرصة لتوضيح وجهة نظري وهكذا كتبت مقالا عن القصة ونشرته في صفحة الأدب بصحيفة المساء وكان هـذا المقال هو الوحيد الذي نشرته في النقد الأدبي إبان عملي في المساء وكان مقالا قاسيا شديد الوطأة على أدب إحسان كله، وهاجت السيدة روز اليوسف وماجت عنـد نشـر المقـال، وشتمت كل المحررين اليساريين الذين كانوا يعملـون فـي روز اليوسف آنذاك مع أنهم لا ذنب لهم فيما نشرته أنا مـن آراء، لكن إحسانا ظل على صداقته لي ولم يفاتحني في كلمة مما نشرت.

ولقد ظلت سنوات عملي في صحيفة "المساء" هي أيضـا سنوات ارتباطي الوثيق بإحسان وكامل الشناوي وكنا عـادة نلتقي كل مساء كل يوم خميس في صحيفة الجمهورية فـي مكتب كامل الشناوي وننتظر حتى تصدر الطبعة الأولى من جريدة الجمهورية ثم نخرج نحن الثلاثة للسهر حتى الصباح تقريبا في فندق مصر الجديدة، وكان يشاركنا هذه السـهرات

أحمد بهاء الدين أو فتحي غانم أحيانا، وعندما رشحت نفسي في يوليو ١٩٥٧ للانتخابات النيابية عن الـدائرة السادسـة (الوايلي والعباسية) لم يتردد إحسان هو وكامل الشناوي فـي التوقيع على بيان الكتاب والفنانين الذي دعـا الشـعب إلـى انتخابي، هذا رغم علمهم أن بعض أجهزة السلطة في مصر لم تكن راضية عن ترشيحي وكانت تسعى سرا وعلنا إلـى إسقاطي فقد كنت مرشح اليسار الوحيد في هذه الانتخابـات وكان نجاحي سابقة لها ما بعدها.

في أول يناير ١٩٥٩ بدأت الحملة الأمنيـة ضـد قـوى اليسار في مصر، واعتقل أكثر من مائتين فـي اليـوم الأول كنت واحدا منهم. وكان الخلاف قد بدأ حول قضية الوحـدة مع سوريا وشكلها وقضية الديمقراطية ثم تداعت الأحـداث إلى حملة معاداة للشيوعية استمرت سنوات.

وبقيت في معتقلات مصر خمس سنوات وثلاثة شـهور، هذا على الرغم من أنني قـدمت للمحاكمـة أمـام مجلـس عسكري في نوفمبر سنة ١٩٥٩ وأصـدر المجلـس حكمـا ببراءتي:

وعندما أفرج عني في أبريل سـنة ١٩٦٤ اتصـل بـي إحسان عبد القدوس ودعاني إلى الكتابة فـي روز اليوسـف وبالفعل عدت للكتابة من جديد فيها إلى أن انتقل الأستاذ أحمد بهاء الدين إلى دار الهلال فانتقلت إلى الكتابـة فـي مجلـة المصور معه.

ولقد ترددت كثيرا على منزله في السـتينيات ومازلـت أذكر لقاءنا مع جيفارا في منزله الحالي في الزمالك، والنقاش الذي دار آنذاك حتى الصباح تقريبا وفي هذه اللقـاءات كنـا نتفق ونتخلف ولم يؤثر الاتفاق أو الخـلاف علـى مودتنـا المتبادلة.

إلا أن الأيام باعدت بيننا بعد ذلك، فقد توفيـت زوجتـي عام ١٩٧٥ وبدأت أسافر كثيرا، فقضيت في بريطانيا أكثـر من عامين ونصف أستاذا زائرا في السبعينيات وعملت مـع الأمم المتحدة بالكويت أربع سنوات بين أواخر السـبعينيات وأوائل الثمانينيات ولم ألتق مع إحسان طوال هذه السـنوات، لكني كنت حريصا دائما على أن أبعث له تحياتي وتمنياتي له بالصحة والعافية كلما قابلت نجله الأكبر محمد ولا شك فـي

أن مرضه في السنين الأخيرة قد أثر على اتصالاته بأصدقائه القدامى، كما أن للشيخوخة أحكاما!

وعندما ذهبت للمشاركة في تشييع جنازته أحسست أنني أحمل على ظهري ذكريات خمسين عاما من النضال والاتفاق والخلاف، ولم أستطع أن أكتم دموعي ونحن نودعه الوداع الخير!.

لقاء مع جيفارا

مرت عشرون عاما على هذا اللقاء بالثائر الكوبي جيفـارا عندما التقينا بالقاهرة في منزل الصديق إحسان عبد القدوس. كان جيفارا عائدا من الجزائر بعد حضوره مؤتمر القـارات الثلاث وطيرت وكالات الأنباء أجـزاء مـن خطابـه فـي المؤتمر، وفيه ينتقد شروط معونة الدول الاشتراكية للـدول النامية مما بدا غريبا علينا، وكانت وجهة نظره فيما يبدو أن الدول الاشتراكية يجب أن تكون أكثر كرمـا وسـخاء فـي معونتها إذا أريد لهذه الدول النامية أن تبني الاشتراكية على أرضها، وكان جيفارا يتكلم كوزير للصناعة في كوبا عاصر مشكلات البناء الاشتراكي واكتوى بلهيبها.

وعندما دق جرس التليفون في منزلي وأخبرنـي إحسـان عبد القدوس بدعوتي للعشاء في منزلـه وحضـوره الحفـل الكبير الذي أقامه على شرف الثائر الكوبي جيفارا شـعرت بسعادة كبيرة فقد حانت إذن فرصة اللقاء مـع هـذا الثـائر الكبير والنقاش معه.

ولقد دعي إلى هذا العشاء كثيرون من كبار صحفيي مصر ومثقفيها وفنانيها أذكر من بينهم "خالد محيي الدين" وزوجته وأحمد بهاء الدين وزوجته وأحمد حمروش وزوجته وموسى

صبري وزوجته ونجمة الشاشـة المصـرية فـاتن حمامـة وآخرين كثيرين لا أذكرهم الآن وإن كنت أتذكر وجود فؤاد الركابي وزير الشئون البلدية العراقي في هذا الحفل الكبير.

ومازلت أذكر حتى الآن أن كثيرا من السـيدات اللاتـي حضرن هذا الحفل تجمعن حول فاتن حمامة يناقشـنها فـي فيلمها الجديد آنذاك "الحرام" لقصة الكاتـب الكبيـر يوسـف إدريس، وفيما أذكر كان لكثير منهن ملاحظات نقدية علـى الفيلم وعلى بعض مشاهده وبعض تقنيات إخراجه، ومع أني أذكر الدفاع الحار لفاتن حمامة عن الفيلم وسـخونة الحـوار بينها وبين عدد من سيدات الحفل. وأتذكر أيضا أنني كنـت أحس بحسرة لعدم حضور زوجتي الصحفية عايدة ثابت هذه المناسبة، فقد كانت مريضة بمستشـفى دار الشـفاء تحـت ملاحظة الأطباء بسبب متاعب الحمل لابنتنا حنان التي ولدت بعد هذه المناسبة بخمسة شهور.

بعد العشاء انتقل معظم الرجال إلى غرفة مكتب إحسـان وأبديت لجيفارا رغبتي في إجراء حوار معه حول عدد مـن القضايا السياسية والاقتصادية ورحب علـى الفـور بـذلك، وهكذا تحلق حول هذا النقاش عدد محدود مـن الأصـدقاء

المهتمين بهذه القضايا ينصتون وبعضهم يترجم أو يتدخل في النقاش مستفسرا عن جزئية هنا أو هناك.

كان جيفارا يتحدث بالفرنسية التي يجيدها وكنت أتحـدث بالإنجليزية التي أجيدها وكان السفير الكـوبي الـذي يجيـد اللغتين وأحيانا الصديق أحمد بهاء الدين يتولى الترجمة مـن الفرنسية إلى الإنجليزية أو العكس.

ولقد استمر النقـاش حتـى الثانيـة صـباحا، وفتحـت موضوعات كثيرة وإن لم تقفل كلها برأي نهائي أو باتفاق في وجهات النظر، وكانت القضية الأساسية التي تشغلني آنـذاك هي: كيف تستطيع دولة صغيرة ذات موارد محـدودة مثـل كوبا أن تبني الاشتراكية وما هي المصاعب التي تواجهها في البناء الاشتراكي، وكيـف تواجـه كوبـا مشـاكل الإنتـاج والاستهلاك ثم قضية معونات الدول الاشتراكية التي كانـت محل نقده في خطابه في مؤتمر القارات الـثلاث بـالجزائر، وكنت في هذه الأسئلة التي أطرحها أمـام جيفـارا أتحـدث وعيني على مصر وتساؤلات عديدة تدور في خاطري حول ما يجري في مصر من مشاكل مشابهة في ظل منـاخ عـام يتحدث عن بناء الاشتراكية بمصر في مواجهـة مصـاعب

ضخمة خارجية وداخلية، وفي ظل شكوك كثيـرة تراودنـي وتراود الكثيرين من أمثالي حول إمكانية تحقيق هذا الهـدف العظيم في ظل الظروف السياسية الداخلية وعلاقات القـوى الاجتماعية القائمة.

أما القضية الثانية التي كانت تشـغلني فهـي: موضـوع المواجهة بين الإمبريالية الأمريكية وكوبا التي لا تبعد عـن شواطئ أمريكا بأكثر من تسعين ميلا، صحيح أن المواجهـة بين خروشوف وكيندي حول قضية الصواريخ عـام ١٩٦٢ انتهت إلى التزام الولايات المتحدة باحترام اسـتقلال كوبـا، ولكن إلى متى سوف تحترم أمريكا اسـتقلال كوبـا وهـي معزولة وسط بلدان أمريكا اللاتينية التـي تـدين معظمهـا بالولاء للولايات المتحدة؟

ولقد استفاض جيفارا في ردوده على كل هـذه الأسـئلة.. وقال فيما يتعلق بقضية التطبيق الاشتراكي لدولة صغيرة مثل كوبا إنها مشكلة حقا وإن مشكلة التطبيق الاشتراكي في دولة مترامية الأطراف مثل الاتحاد السوفييتي هي مشكلة خاصـة وتختلف تماما عن قضية التطبيق الاشتراكي في دولة ناميـة صغيرة مثل كوبا وقال إنهم في حماسهم للحـل الاشـتراكي

اندفعوا إلى بناء المصانع وتغيير نمط الزراعة الكوبيـة دون تفكير وتخطيط صحيح طويل المدى وأنهم وضعوا خطـتهم الأولى على أسـاس أن تكـن لمشـروعات الإنتـاج ٧٠% ولمشروعات الخدمات ٣٠% من الاستثمارات وبعد ثـلاث سنوات اكتشفوا أنهم نفذوا ٧٠% من مشروعات الخـدمات، ٣٠% من مشروعات الإنتاج. وقال جيفارا إن تلك مشـكلة كبيرة لشعوب الدول النامية التي فـي أمـس الحاجـة إلـى الخدمات بعد حرمان طويل.

وقال جيفارا إنهم كانوا يحاكون تجربة تشيكوسلوفاكيا فـي بناء الاشتراكية. وعندما سئل: لماذا تشيكوسلوفاكيا بالـذات؟ قال إنه ليس هناك سبب محدد سوى أن هذا البلد أرسل لنـا تفصيلات عن تجربته وكنا في لهفة على العمل الجاد فبـدأنا نعمل دون تخطيط سليم ثم أخـذنا بعـد سـنوات نصـحح أخطاءنا. وقال جيفارا إن العالم الرأسمالي قد تغير كثيرا عما كان عليه الوضع أيام ماركس وإن ماركس على أي حال لم يضع حلولا لقضايا التطبيق الاشتراكي، فإذا كان العالم قـد تغير كثيرا عن أيام ماركس فلابد من إعـادة النظـر فـي مقولات ماركسية عديدة وخاصة فيما يتعلق بقضية التطبيـق

الاشتراكي للدول النامية والصغيرة وقال إن الدول الاشتراكية الأوروبية التي بنت الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية قد حذت حذو النموذج السوفييتي ولم يكن لدى أحـد الشـجاعة الكافية ليناقش ويعارض على أساس عدم الملاءمة.

وكان من رأي جيفارا أنه لابد من إعادة النظر في مفهوم الربح في النظام الاشتراكي وفكرة الحافز وعديد من المفاهيم الأخرى، وقال إنه لا يزعم أن لديه حلولا للمشاكل والأسـئلة التي يثيرها وإن كان يريد أن يقول إنه لابد من دراسة عميقة تواجه مشاكل التطبيق الاشتراكي في الدول المتخلفة، ولقـد عاب جيفارا على الدول الاشـتراكية المتطـورة علاقاتهـا التجارية مع الدول النامية والتي تقوم على أسـاس الأسـعار الدولية في السوق الرأسمالية في شراء المواد الخام.

أما فيما يتعلق بمستقبل العلاقات بين كوبا وأمريكا علـى ضوء عزلة كوبا في محيطها بأمريكا اللاتينية فقد بدا جيفارا غير متحمس لمناقشة هذه القضية بمثل حماسه في الإجابـة على أسئلتنا عن التطبيق الاشتراكي، وقـال كلامـا عامـا مقتضبا، الأمر الذي أثار دهشتي آنذاك.

ولكن عندما أذيعت أنباء مصرع جيفارا في بوليفيـا فـي معارك حرب العصابات هناك عام ١٩٦٧ وعندما وصـلتني نسخة من كتاب "ثورة في الثورة" لريجي دوبريـه، أخـذت أتساءل بيني وبين نفسي إن كان جيفارا عند لقائنا في منـزل إحسان عبد القدوس كان قد وصل إلى قناعات بتـرك كوبـا والذهاب إلى بوليفيا لقيادة حرب العصابات هناك، وإن هـذا هو طريق تأمين التجربة الاشتراكية في كوبا وما إذا كان هذا الاقتضاب في الإجابة على أسئلتي شيئا مقصودا. بل وما إذا كانت الظروف الخاصة جدا التي أحاطت بنجاح ثورة كوبـا قد جنت على فكر هذا الثائر الرومانسي الكبيـر، وأغرتـه بمحاكاة هذه التجربة في الثورة في ظروف بلـدان لاتينيـة أخرى تختلف عن ظروف كوبا الخاصة.

وأخيرا ملحوظة خاصة..

فقد يتساءل بعض القراء كيـف اسـتطاعت ذاكرتـي أن تستوعب كل تفاصيل هذا اللقاء بعد عشرين عاما من وقوعه ولهؤلاء القراء أجيب على هذا السؤال المشروع بأن ذاكرتي لا تزال قوية نسبيا فيما يتعلق بالأحداث الهامة التي عشـتها، فضلا عن أنني استعنت بمقال ممتاز للأستاذ موسى صبري

– نعم الأستاذ موسى صبري – كان قد كتبه فـي عـدد ١٧ مارس ١٩٦٥ من مجلة آخر ساعة عن هذا اللقاء الذي كان أحد حضوره.


للذكرى

منذ أيام مضت ذكراه السادسة عشرة، وكان قـد رحـل فجأة وهو في قمة حيويته ونشاطه الأكاديمي، ووقـع علـي خبر رحليه وقوع الصاعقة، كنت يومها أستاذا زائرا لجامعة لانكاستر في الشمال الغربي لبريطانيا أسـتعد للعـودة إلـى القاهرة أنا وابنتي الصغيرة حنان التي قضت العام الدراسـي كله معي في بريطانيا، وكان ترتيباتنا هي أن نذهب بالسيارة إلى فرنسا وإيطاليا وأن نقضي شهر يوليو كله هنـاك حتـى نصل إلى نابولي، ثم نأخذ المركب إلى الإسكندرية من هناك.

وفي صباح يوم تلكأت فيه بالمنزل دق جرس الهـاتف، وكان المتحدث يتصل بي من روما ليعزيني فـي المصـاب عندما قرأ نبأ الحادث الذي أدى إلى الوفـاة فـي الصـفحة الأولى من الأهرام ثم النعي في صفحة الوفيات، واشتد حرج هذا الصديق المتحدث من روما عندما أدرك أنني لـم أكـن على علم بالخبر!

وبسرعة اتصلت بأشقائي في القاهرة هاتفيا فأكـدوا لـي صحة الخبر عن الحادث الذي وقع في اليوم السابق.

وسابقت الزمن لآخذ أول طائرة إلـى القـاهرة، لكننـي عندما وصلت كانوا قد واروه التراب وعادوا، وكـانوا قـد تقبلوا فيه العزاء وانتهى الأمر.

إنني أتحدث عن شقيقي الأكبر المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس الذي كان عميدا لكلية دار العلوم مرتين وعضـوا بمجمع اللغة العربية لمدة عشرين عاما، وصاحب كرسي "فقه اللغة" بجامعة القاهرة وهو الرجل الذي كان له الفضل الأكبر في تربيتي المدرسية ورعايتي حتى تخرجت في الجامعـة، وكان فارق السن بيننا كبيرا، ربما يزيد على سـبعة عشـر عاما، فعندما تخرج في دار العلـوم عـام ١٩٣٠ واشـتغل بالتدريس كنت في السابعة استعد لدخول المدرسة الابتدائية، وسافر هو بعد ذلك إلى بريطانيا في بعثة حكومية للحصـول على الدكتوراه، فكان يرسل لي الخطابات المشـجعة علـى مدرسة الحسينية الابتدائية ثم على مدرسة فؤاد الأول الثانوية بعد ذلك، وهو بلا شك صاحب الفضل في توجيهي لـدخول "شعبة الرياضيات" في السنة التوجيهية ومنهـا إلـى قسـم الرياضيات بكلية العلوم. وكان يعـرف بـالطبع اهتمامـاتي الأدبية والفلسفية، كما كان يعرف محبتي للرياضيات، وكـان

يقول لي دائما: "إنك تستطيع أن تواصل اهتماماتك الأدبيـة والفلسفية وحدك بالقراءة والمثابرة، لكنك لا تستطيع ذلك في الرياضيات" ثم يضحك ويقول: "يا بني الأدب لا يطعم أحـدا هذه الأيام" ولم أندم على قبول نصيحته أبدا، وظل إبـراهيم أنيس بالنسبة لي أبا روحيا وبالتأكيد تفرقت بنا السبل عنـدما كبرنا واهتممت أنا بالعمل السياسي الذي كان قد فقد الاهتمام به منذ أن كان طالبا وفديا وشاعرا يلقى قصائده أمام سـعد زغلول في بيت الأمة، ثم أمام مصطفى النحاس من بعـده، لكنه ظل في مكانة الوالد بالنسبة لي..

ولن أخجل من أن أقول إنه أحد أبـرز حـراس اللغـة العربية في العصر الحديث باعتباره لغويا رائدا أحدث ثورة حقيقية في علم فقه اللغة بدء من دراسة للهجة أهل القـاهرة وانتهاء بجهوده في استخدام الكمبيوتر في إحصاء تكـرارات الحروف العربية.

ولا شك في أنه يحسب له أنه أول من بشـر بالمنـاهج العصرية في دراسة أصوات اللغة مستعينا بالأجهزة الصوتية الحديثة، وأثمر هذا كله كتابه الرائد "الأصوات اللغوية" وبعد ذلك صدرت له المؤلفات الآتية على التوالي: من أسرار اللغة

العربية، موسيقى الشعر، في اللهجات العربية، دلالة الألفاظ، وهو الكتاب الذي حصل به على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٧، مستقبل اللغة العربية المشتركة، اللغة بين القومية والعالمية، طرق تنمية ألفاظ اللغة (مجموعة محاضرات).

كما كان له أربع مسرحيات منشورة وهي:

١- العجوز المتصابي وقد كتبها خلال دراسته بكلية دار العلوم وأشرف على تمثيلها في مسرح الأزبكية.

٢- إيناس أو ضحية المجتمع.

٣- المنصور بن عامر الأندلسي.

٤- المتنبي في مجلس سيف الدولة.

وقد نالت جهوده المتميزة في خدمة اللغة التقدير لا على نطاق العالم العربي وحده وإنما على النطاق الدولي أيضا. وكانت هذه الحقيقة وراء اختياره في مقدمة اللغويين الذين يؤرخ لحياتهم في (معجم اللغويين العالميين) الذي تصدره جامعة "أنديانا" بالولايات المتحدة.

وإبراهيم أنيس ليس في الحقيقة غريبا على الكويت، فهناك العديد من تلاميذه الكويتيين أيام دار العلوم، وهم يشغلون

اليوم المناصب المرموقة في الجامعة ووزارة التربية والتعليم أو في الصحافة الكويتية، وفضلا عن ذلك فقد دعته جامعـة الكويت لمدة شهر أستاذا زائـرا حيـث ألقـى عـددا مـن المحاضرات واستخدم الحاسب الآلي للجامعة فـي متابعـة أبحاثه اللغوية، وعاد من هذه الزيارة بأجمل الذكريات التـي حدثني عنها ولم أكن آنذاك (في أوائل السبعينيات فيما أذكر) قد زرت الكويت ولا عرفت أحدا من أهلها.

في يوم ٨ يونيو من عام ١٩٧٧ خرج إبراهيم أنيس كعادتـه كل مساء يمارس رياضة المشي ساعة من الزمـان، وهـو الرجل الذي يجلس إلى مكتبه في صومعته بالمنزل سـاعات طوالا بلا ملل، وإذا بطالب ليبي مستهتر يصـدمه بسـيارته وهو يحاول عبور الطريق.

ونقل إبراهيم أنيس إلى مستشفى العجـوزة القريـب دون أن يعرف أحد من هو، ووجد البوليس في جيبه ورقة صـغيرة واحدة بها رقم هاتف، واتصل البوليس بصاحب الرقم الـذي تبين أنه الدكتور كمال بشر عميد دار العلوم آنذاك، وحضر الرجل وتعرف على الجثمان، وأبلغ عائلته تليفونيا بالمصاب، وفي اليوم التالي اتصل بي من روما هذا الصديق الذي ظـن

أنني على علم بالخبر، وحاولت أن أشترك في وداعه الأخير فلم أفلح!

تحية حب وتقدير وعرفان بفضله في ذكراه السادسة عشرة.

ذكريات مع علي مصطفى مشرفة

في الذكرى المئوية لميلاده

دخلت كلية العلوم بجامعة القاهرة في أكتوبر سنة ١٩٤٠ وتخرجت فيها في يونيو سنة ١٩٤٤، وفي السنوات الثلاث الأولى والشهر الأول من السنة الرابعة لم يكن هناك أي اتصال شخصي بيني وبين عميد الكلية، ورئيس قسم الرياضة التطبيقية الأستاذ الدكتور علي مصطفى مشرفة.

كنت أحضر بالطبع محاضراته في السنة الثانية وفي السنة الرابعة، وكان آنذك يحاضر في علم الإستاتيكا في السنة الثانية، ويحاضر في النظرية الكهربائية المغناطيسية للضوء والبصريات في السنة الرابعة، وكنا نحن طلاب الرياضيات ننظر إليه باحترام ومهابة شديدين، وكانت تنتشر في أوساطنا نحن الطلاب أسطورة أن من يفهمون النظرية النسبية لأينشتين في العالم عشرة بينهم واحد مصري.. هو علي مصطفى مشرفة.

ثم وقع حدث طلابي في أوائل السنة الرابعة جعلني على اتصال شخصي به طوال العام، هذا الحدث هو انتخابات الجمعية الرياضية الطبيعية لطلاب وأقسام الرياضيات

والفيزياء التي تجرى كل عام وينتخب فيها طلاب كل صف من الصفوف الأربعة اثنين من الطلاب فـي مجلـس إدارة الجمعية لذلك العام، وقد رشحت نفسي عن السـنة الرابعـة فانتخبني زملائي في اجتماع مجلس الإدارة الجديد، وأكرمني زملائي فانتخبوني رئيسا لمجلس الإدارة عن العام الدراسـي سنة ٤٣ ـ ١٩٤٤.

وبعد انتخابي رئيسا للجمعية بدأت في إعـداد البرنـامج الثقافي للجمعية، أي سلسـلة المحاضـرات التـي سـيلقيها مختصون في موضوعات رياضية وفيزيائيـة عامـة تثيـر اهتمام الطلاب، وحرصت بالطبع على أن أضع في مشروع البرنامج محاضرة عن النظرية النسبية يلقيها علي مصـطفى مشرفة، وعندما عرضت عليه الاقتراح لم يعارض وإن كان قد طلب تأخير موعدها.

وبالطبع ظللت على اتصال به طـوال العـام، وضـمتنا ذكريات عديدة جميلة عن هذه الفترة سوف أفضي هنا بثلاث منها مازالت محفورة في ذهني.

- الذكرى الأولى تتعلق بطالب اسمه صالح كان زميلا لنا في السنة الرابعة وإن تخصص في الفيزياء، وقد صار عميدا لكلية العلوم بالإسكندرية في الستينيات.

جاءني صالح في أحد الأيام واقترح علي أن يكون ضمن البرنامج الثقافي للجمعية محاضرة له في الفيزياء، ورفضت طلبه على أساس أنه طالبا مثلنا لن يفيدنا بشيء جديد، ولو فتحنا هذا الباب، باب أن يقوم الطلاب بإلقاء محاضرات في الجمعية فلن نقدم للطلاب جديدا، ولم يقتنع صالح فذهب إلى عميد الكلية شاكيا موقفي.

أتذكر أن ساعي العميد جاء يبحث عني وعندما وجدني قال لي "الباشا يريدك على الفور" وذهبت إلى غرفة العميد ألهث من الجري، وعندما دخلت ولاحظ حالتي قام من مكتبه وأخذ كرسيا، ووضعه بجوار النافذة التي فتحها على الفور، وقال: "نتكلم عندما تهدأ وتلتقط أنفاسك".

وبعد خمس دقائق جاء وجلس على كرسي آخر بجواري وقال لي "هل يرضيك أن يجلس الأساتذة في الأتوبيس، بينما الطلاب واقفون" وكان بطبعه يهوى الحديث بمثل هذه التشبيهات والاستعارات، ورغم أنني لم أفهم المقصد من

وراء هذا الكلام، إلا أنني رددت على الفور: إن هذا وضـع طبيعي إذ على الطلاب أن يقفوا فـي الأتـوبيس احترامـا لأساتذتهم، فضلا عن أنهم أقدر على الوقوف لصغر سنهم.

ضحك العميد ضحكته المعهودة وقال: غلبتنـي! وتكلـم فورا عن شكوى الطالب صالح وشرحت له وجهـة نظـري التي وافق عليها مجلس إدارة الجمعية، لكنه قال: يا سـيدي علشان خاطري اعطوه فرصة. ووافقت طبعا لا اقتناعا وإنما احتراما لرغبة العميد.

- الذكرى الثانية تتعلق بمحاضرته عن النظرية النسبية، إذ بدأت أتساءل: من الذي سيقدم العميد في هذه المحاضـرة وقررت أن من الأنسب أن يقدمه واحد من الأساتذة وذهبـت إليه مقترحا أن يتولى تقديمه أستاذنا د. محمد مرسي أحمـد رئيس قسم الرياضة البحتة الذي كان له مودة خاصـة فـي قلبي، لكن العميد رفض وقال: أنت رئيس الجمعيـة وأنـت الذي تقدمني للحضور، وبالطبع كنت خجلا من تقديمه، لكنه صمم على ذلك وفعلت ما طلبه، وأتـذكر أن مـدرج قسـم الفيزياء حيث ألقيت المحاضرة كانت مليئا بالحاضرين مـن داخل الكلية وخارجها، وأن القضـايا التـي أثارتهـا هـذه

المحاضرة كانت ذات أثر كبير على الحاضرين وطال زمن المحاضرة والأسئلة إلى نحو ثلاث ساعات، وهو أمر نـادر الحدوث في برنامج المحاضرات.

- أما الذكرى الثالثة فتتعلق بالصورة التذكاريـة التـي كانت تؤخذ في أواخر العام الدراسي لمجلس إدارة الجمعيـة مع رئيس شرف الجمعية والمستشـارين، ولا تـزال هـذه الصورة في غرفة مكتبي بالمنزل حتى الآن.

والعادة أن هناك من يجلسون على دكـة أعـدت لهـذه المناسبة، وهناك من يقفون وراءهم، وقررنا نحن الطلاب أن الأساتذة هم الذين يجلسون بينما نقف نحن الطلاب وراءهـم، لكن علي مصطفى مشرفة كان له رأي آخر إذ صمم على أن أجلس على الدكة وسط الصورة ويجلـس الأسـاتذة علـى الجانبين، وكنت في أشد حالات الخجل وحاولت جاهـدا أن أقف مع زملائي الطلاب في الصف الخلفي، لكنه صمم على رأيه وقال ضاحكا: أنت رئيس الجمعية وتستحق أن تكـون مركز الصور، وهذا ما كان فعلا.

ولم أر علي مصطفى مشرفة بعد تخرجي وتعييني معيدا في جامعة الإسكندرية، ولكن ذكراه ظلت عزيزة إلى قلبـي،

غالية في نفسي، وأتذكر أنني عندما عملت رئيسـا لشـركة الكاتب العربي للطباعة والنشر عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كان كتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمي الذي قام بتحقيقـه علـي مصطفى مشرفة، ومحمد مرسي أحمد ضمن كتب الدار التي أعيد طبعها.

الباب الثالث

المثقفون والسلطة

في أوردي أبو زعبل

رسالة إلى زوجتي

زوجتي الحبيبة: هأنذا أرسل لك هذه الرسالة بعد غيبـة طويلة منذ أن أرسلت لك خطـابي خـلال المحاكمـة أيـام المجلس العسكري بالإسكندرية في أكتوبر الماضـي، ولقـد مضى على خطابي هذا نحو عشرة شهور اجتزنا فيها تجربة طالت وكأنها عشر سنوات! أعني تجربة الأوردي بما تعنيه من تعذيب يومي، وإهدار لآدمية المعتقلين، وعمل كالسـخرة في جبل أبو زعبل، ثم قتل لعدد من زملائنا، إنها باختصـار ما صنعته النازية في خصومها السياسـيين فـي معـتقلات أوروبا المشهورة، ولم يكن لينقصها لتصبح الصورة مطابقة تماما غير غرف الغاز!

لقد انتهت هذه التجربة الآن وعدنا إلى آدميتنا من جديد.. ولعلك أدركت من خلال زيارتك لي في الشهور الأخيرة مبلغ السوء الذي وصلت إليه حالتي الصحية، غيـر أنـي اليـوم أسترد صحتي بالتدريج فلا تقلقي. ولكن ما يقـض مضـجي حتى اليوم أن شهدي عطية، بمصرعه الفاجع فـي الأوردي تحت سياط التعذيب، هو وحده الذي فـدانا جميعـا. ولـولا

مصرعه وما أثار من ضجة خارجية لاستمر التعذيب حتـى اليوم ولاستطاب كثير من المسئولين هذه الحال ومـن قبـل قتلوا الدكتور فريد حداد ببساطة وكأنهم يؤدون عملا عاديـا وهؤلاء القتلة معروفون ويعيشون بينكم لا يعذب أحدا مـنهم ضمير ولا تمتد إليه يد قانون!.

إن قتلة شهدي وفريد حداد هم اللواء إسماعيل همت وكيل مصلحة السجون والعميد إسـماعيل طلعـت مـدير سـجن أبو زعبل، ثم أولا وأخيرا الضباط حسن منير وعبد اللطيف رشدي ويونس مرعـي. هـؤلاء الثلاثـة هـم الجـلادون المباشرون. ولكني لا أشك أن وراء هـؤلاء يقـف رجـال المباحث العامة بقيادة حسن المصيلحي وبعض رجال وزارة الداخلية ولست أستطيع أن أصدق أن المسئولين في مصـر لم يكونوا يعرفون ما يجري في (أبو زعبل) خلال الفترة من نوفمبر سنة ١٩٥٩ إلى يونيو ١٩٦٠.

لا أدري كيف أبدأ في رواية القصـة الإجراميـة التـي وقعت هنا. خلال هذه الفترة أرسلت لك عددا من الخطابـات بمعرفة إدارة السجن ولعلك لاحظت أن كل خطاب لم يـزد على ثلاثة سطور، أسأل فيها عن أحوالك وأحوال منى ووفاء

وإخوتي وأطلب إرسال بعض النقود. لقد تعمـدت هـذا لأن الخطابات كتبت خلال أسوأ ظروف وإبان فتـرة التعـذيب، ولم يكن لدي ما أقوله.. أو بمعنى أصح لم يكن ممكنا كتابـة ما أريد أن أقوله!

***

لقد رحلنا من سجن مصر يوم ٧ نوفمبر سـنة ١٩٥٩.. ولا أدري إن كان لاختيار هذا التاريخ معنى خـاص عنـد رجال المباحث، ولكني أعلم أن إعدادنا لما كان ينتظرنا فـي أوردي (أبو زعبل) قد بدأ ونحن واقفون في فناء سجن مصر ننتظر الترحيل. فقد أخذ مأمور سجن مصر شوقي القطشـة في استفزازنا دون مبرر، وكسر بنفسه أشـياء كثيـرة مـن لوازمنا المتواضعة التي نحملها من سجن إلى سجن، وعندما وصلت العربة التي حشر فيها الواحد والستون إلـى أوردي (أبو زعبل) فوجئنا بفرقة من الخيالة على جيادهم، ثم صفين من الجنود يحملون العصي الغليظـة علـى بـاب الأوردي وداخله وكانت التعليمات أن ينزل كل واحد منا بسـرعة وأن يخلع ملابسه على باب الأوردي.. كل ملابسه حتى يصـبح عاريا كما ولدته أمه، وأن يأخذ بسرعة برشا وبدلـة سـجن

بيضاء ويهرع إلى العنبر. وكان أساس العملية هو المفاجـأة الكاملة وشل الذهن عن التفكير حتى لا يجد إنسـان فرصـة ليحتج أو يناقش. وبطبيعة الحال لم يستطع معظم المعتقلـين أن ينجزوا هذه المهمة في سرعة وكانـت النتيجـة أن قـام الجنود بضربهم وهم عرايا – بالعصي الغليظة فضـلا عـن الإهانات اللفظية.

وكانت مهزلة وما أبشعها من مهزلة ومع ذلك فإن "حفلة الاستقبال" كما واجهناها لم تكن شيئا بالمقارنة بـ "حفلـة الاستقبال" التي أعدت لدفعة شهدي عطية في يونيو الماضي، والتي مات فيها هذا الصديق العزيز.. فضلا عـن الـزملاء الآخرين الذين ظلوا في حالة خطرة لعدة أيام بعد ذلك، وفي اليوم التالي لوصولنا بدأ روتين الحياة المعدة لنا.. نقوم فـي الصباح ونذهب ونحن حفاة في طابور إلى جبل (أبو زعبل) لتكسير الأحجار، ويستمر العمل حتى الظهر حيث نعود إلى الأوردي ويقفل العنبر علينا حتى صباح اليوم التالي، والطعام الذي يقدم لنا هو أسوأ ما يتصوره إنسان في حياتـه عسـل أسود في الصباح، فول نابت في الظهر. ثم خضار لا طعـم له وقطعة لحم تثير القرف في المساء. وخلال كل يوم تقريبا

ينتقى عدد من المعتقلين لاستفزازهم وضربهم ضربا مبرحـا ووضعهم في زنزانة انفرادية مغطاة بالماء البارد وبلا أغطية لمدة يومين أو ثلاثة. وكثيرا ما يفتح العنبـر فـي الصـباح أو بعد الظهر، وفجأة تدخل فرقة من الجنود بحجـة تفتـيش العنبر. وكان علينا أن ندير وجوهنا إلى الحائط أثناء التفتيش ثم في ختامه كان علينا أن نحني ظهورنا كأننا راكعون فـي صلاة ثم يدور كل واحد منا حول نفسه مرات ومرات حتـى يأمر الضابط بالتوقف. وبالطبع خلال هذه العمليـة الهزليـة يضرب الجنود عددا من المعتقلين كيفما اتفق، إنهـا عمليـة تثير الضحك وحتى الآن لم أفهم المقصود من هذه التعليمات.

كان الجو الظاهري أننا نعيش في (أبـو زعبـل) حيـاة عسكرية، والجو الحقيقي المقصود هو التنكيـل... ومازلـت أذكر أننا خرجنا مرة لطابور "رياضة" وخلال هذا الطـابور طلب منا حسن منير أن نهتف باسم عبد الناصر وأن نغنـي أناشيد وطنية. فلما اعترض الدكتور إسماعيل صبري عبدالله قائلا إننا لا نفعل هذا بناء على أوامر انهالوا عليه بالعصـي حتى فتحت رأسه! وبطبيعة الحال كان لابد أن يـأتي دوري ودور محمود العالم! وفي المرة الأولى عندما رفعت صوتي

مبديا ملاحظات متواضعة على بعض ما يحدث، أخذت أنا وزميل آخر إلى الغرفة الانفرادية وبقينا هناك حتى جاء حسن منير مأمور الأوردي، فإذا به يعيدنا إلى العنبر دون عقاب. وكان لهذا الموقف فرحة وأية فرحة في كل العنبر. فقد بدا وكأنه نصر لنا! وفي المرة الثانية لاحتجاجي أخذنا إلى جبل (أبو زعبل) وبدأ العدوان علي بشكل مكثف على يد فرقة من الجنود يقودها الصول مطاوع، واستمر الحال على ذلك حتى أغمى علي من شدة الضرب، وحملني زملائي على أكتافهم وأنا في شبه غيبوبة إلى العنبر، ثم نقلت إلى غرفة "الملاحظة الانفرادية" المخصصة للمرضى، وبقيت فيها عشرة أيام بين الحياة والموت في الأيام الأولى. ولقد كان من حسن حظي أن الطبيب الذي جاء لعيادتي كان زميلا لي في المدرسة الثانوية. وهالته حالتي في اليوم الأول حتى اغرورقت عيناه بالدموع تأثرا، وظل يواظب يوميا على التردد علي مرتين ويحضر أدوية خاصة من عنده حتى اطمأن على حالتي، وبطبيعة الحال لم تكن الإدارة تدري أن الطبيب زميل سابق لي في الدراسة وأن هذا هو مصدر

اهتمامه الكبير بي. وأحيانا كثيرة أحس أنني مدين بحياتي لهذا الرجل النبيل.

لن أطيل عليك أكثر من هذا.. سوى أن أقول لك إن من مبررات هذه المعاملة الوحشية التي قيلت آنذاك على لسان بعض الضباط هو موقف الزملاء الجريء أثناء المحاكمة بالإسكندرية، فنحن كمجموعة لم نخف انتقادنا السياسي للحكومة ولسياسة عبد الناصر في قضيتي الوحدة والديمقراطية، ولكنني لا أستطيع قبول هذا التبرير بسهولة، لأن قضية شهدي عطية (وكان من المعروف أن زملاء هذه القضية على عكسنا لا يخفون تأييدهم شبه المطلق لسياسة عبد الناصر آنذاك) قد لقيت على باب الأوردي استقبالا أتعس بكثير من استقبالنا، وأن شهدي نفسه قد ضرب حتى الموت، ولقد كنا داخل عنابرنا عندما وصلت دفعة شهدي. وبطبيعة الحال لم نر شيئا يذكر بأعيننا، ولكننا سمعنا كل شيء! فقد كان المطلوب من كل واحد منهم أن يهتف بسقوط الشيوعية وان يذكر اسمه بصوت عال، وأن يقول "أنا مرة"..إلخ. وعندما رفض شهدي وآخرون كثيرون تنفيذ هذه التعليمات المخزية انهالوا على رأسه بالضرب حتى الموت،

ويبدو أن موت شهدي كان مفاجأة لإسماعيل همت وحسـن منير والآخرين.

وإذا بهمت يستقل سيارته ويمضي هاربا إلـى القـاهرة، وإذا بحسن منير يضع الجبس على ذراعه مدعيا أمام النيابة أن المعتقلين هجموا عليه وضربوه وكسروا ذراعه، وأنه هو وجنوده كانوا يدافعون عـن أنفسـهم، بعـد وفـاة شـهدي وما أحدثته من ضجة جاءت النيابة بأعداد كبيـرة، وتولـت التحقيق صباحا ومساء.. وفجأة تغير جو المعتقل تماما! وقد طلبت أنا والدكتور إسماعيل صبري عبد الله سماع أقوالنا في مقتل شهدي، وأجابت النيابة طلبنا. وكـان منظـرا مخزيـا للضابط حسن منير عندما أتوا بـه لتقـوم النيابـة بتجربـة التعرف على صوته وأنا داخل العنبـر كمـا ذكـرت فـي التحقيق، لقد رأيته كالفأر المتهالك، ولم يجرؤ على أن ينظر إلي، بل كان مطرقا رأسه إلى الأرض طوال الوقـت وقـد وضعتني النيابة في غرفة مقفلة وطلبت منه ومـن ضـباط آخرين أن يرفعوا صوتهم بجمل من التي كـانوا يقولونهـا للمعتقلين في حفلة الاستقبال "وفي كل مـرة تعرفـت علـى

صوته في يسر دون أن أراه وبطبيعة الحال نقل حسن منيـر في اليوم التالي لوفاة شهدي حتى لا يفتك به المعتقلون!.

إن الضجة التي حدثت عند وفاة شهدي كانت أمرا طبيعيا ولكن الغريب أن الدكتور فريد حداد قد قتل داخـل الأوردي قبل شهدي بشهور ولم تحدث وفاته ضجة ما!

أنك تذكرين بالطبع الدكتور فريد حـداد، هـذا الطبيـب الشهم الذي تولى علاجي وعلاجك وعلاج عمتك قبل اعتقالي أكثر من مرة. كم كان وديعا، طيب القلب عظيم الإنسانية!

تستطيعين أن تتصوري صدمتي عندما أخرجنا من العنبر ذات يوم عند الغروب لاستلام طعامنا ونحن نجري كالعادة، ولمحت أمام الزنزانة الانفرادية رجلا في ملابـس السـجن ملقى على الأرض، وهو يبدو في حالة إغماء لم أتيقن فـي أول الأمر من هو هذا الإنسان، وإن كنت واثقا أنني أعرفه. ثم بدأت أعي أن هذا هو فريد حداد. ومع ذلك لم أتيقن آنذاك إن كان قد مات عندما رأيته أو أنه مغمى عليه فحسب، فلما سمعنا في اليوم التالي أن أحد المعتقلين قـد مـات، كانـت الصدمة بالنسبة لي فظيعة وبقيت في حالة نفسية سيئة عـدة أيام.. ولست أشك لحظة أن يونس مرعي هو المسئول عـن

قتل فريد حداد، فقد كان الضابط الوحيد الموجود بـ الأوردي عصر ذلك اليوم، وقد سمعنا – نحن في العنبر – صوته وهو يعتدي بالضرب على قادم جديد لم نكن نعرف من هو!.

إلى جانب هذا القتل والتعذيب ساءت أحوال المعتقلين الصحية وبسبب سوء التغذية، وكثيرون مرضوا وأوشكوا على الموت بسبب انتشار الأمراض ولم يتحرك أحد رغم كل هذا، لقد عشنا في حالة مجاعة كاملة لمدة ثمانية شهور لا يعطونا إلا ما يكفي للإبقاء علينا على قيد الحياة فحسب.

أما مهانات العمل في جبل (أبو زعبل) فهي عديدة.. صفوة من مثقفي مصر مثل د. لويس عوض والدكتور عبد الرازق حسن، والكاتب المسرحي ألفريد فرج، والرسام حسن فؤاد والناقد محمود أمين العالم، والدكتور فؤاد مرسي والدكتور فوزي منصور والدكتور إسماعيل صبري عبد الله.. الخ وغيرهم كثيرون يساقون كل يوم إلى الجبل حفاة شبه عراة في أقسى أيام الشتاء لكسر حجارة أبو زعبل بالإضافة إلى عشرات من القادة النقابيين وقيادات الطلاب.

ومع ذلك يجب أن أقول إننا تعلمنا حرفة مفيدة، وأنني في نهاية الأمر أجدت قطع الأحجار إلى قطع صغيرة كما كان

مطلوبا لرصف الشوارع، وكنت أحيانا أقول ضاحكا "صنعة في اليد أمان من الفقر"! أما الأمـر الثـاني الـذي أردت أن أذكره لك فهو تجربتي المثيرة في تدريس الرياضيات العالية للصديق محمد عباس سيد أحمد في ظل هذه الظروف السيئة! لقد صمم محمد على إعطائه محاضرات داخل العنبـر فـي موضوعات كنت أقوم بتدريسها لطلبـة البكـالوريوس فـي جامعة لندن في عامي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ ولـم تكـن هنـاك سبورة أو طباشير أو ورق أو قلم وكان قـد مضـى علـى إعطائي هذه المحاضرات عامان على الأقل وكنت قد نسيت المعادلات والبراهين.. الخ ومع ذلك فقـد كـان لتصـميمه وإلحاحه الفضل في بدء محاولات التذكر.

وقد ظللت أتعثر في محاولات التذكر هذه، وفجأة بـدأت خيوط الموضوع تعود، كأن شلة خيط كانت معقدة ثم حلـت وانسابت الذاكرة صافية بكل تفاصيل البـراهين كمـا كنـت أعلمها للطلاب. إن العقل الإنسـاني غريـب فـي تخزينـه للمعلومات وفي استرجاعها! والأغرب هو أن يتم ذلك فـي مثل هذه الظروف القاسية، ولقد كان الصديق محمد يخفي في ملابسه كل قطع الأحجار الطباشيرية التي يجـدها بالجبـل

لنكتب بها على بلاط العنبر معادلات رياضية بالغة التعقيد ثم نمسحها بسرعة خوفا من أن نفاجأ بدخول الضباط أو الجنود إلى العنبر، وعندئذ قد يظنون أننا نكتب شفرة سرية؟

لقد انتهت هذه المرحلة.. بكل ما فيها من مهانات وتعذيب وأشياء قليلة إيجابية، وإذا كنت قد صممت على كتابتها لـك فلكي تعرفي كيف وصل بنا الحال في مصـر فـي معاملـة المعتقلين السياسيين، وكيف كان علي أنا وزملائي أن نتحمل هذه التجربة البشعة في صبر وتماسك، وأحمد الله علـى أن كل هذا قد انتهى – وأرجو – إلى غير رجعة! ولكني أظـل أفكر في شهدي وفريـد كثيـرا، وأفكـر فـي زوجتيهمـا وأولادهما.. ما أعظمها من خسارة وما أروعه من مثل!

أقبلك وأضمك بقوة.

"كامل"

سبتمبر سنة ١٩٦٠

الرسالة عن كتاب د. عبد العظيم

"رسائل الحب والحزن والثورة"

في ذكرى زوجتي

هذا الكتاب ليس إلا مجموعة من الرسائل الحقيقية التـي جرت بيني وبين زوجتي.. عايدة ثابت الصحفية المصـرية، خلال فترة عصيبة من تاريخ مصر الحديث، وهـي فتـرة كانت شديدة القسوة علينا نحن الاثنين.. إذ لم يكن قد مضـى على زواجنا أكثر من شهرين عندما بدأت رياح العواصـف العاتية!

أما الفترة فهي السنوات ١٩٥٩ ـ ١٩٦٤ وبالدقـة مـن أول يناير سنة ١٩٥٩ إلى ٤ أبريل ١٩٦٤.. بدأت باعتقالي كواحد من مئات الشيوعيين المصريين الذين اعتقلـوا فجـر أول يناير، وكنت قد تزوجت عايدة ثابت في ٥ نوفمبر سـنة ١٩٥٨ بعد قصة حب دامت عدة شهور قبل الزواج. وعشنا نحو شهرين من أسعد أيام حياتنـا حتـى فاجأتنـا عاصـفة الاعتقالات فوضعت حدا لكثير من أحلامنا وآمالنا..!

فصلت عايدة ثابت من عملها في صحيفة "المسـاء" وإن لم تعتقل. كما فصلت أنا أيضا أثر اعتقالي.. وأصبحنا نحـن الاثنان نواجه الحياة بلا مورد، أنا في المعتقـل وهـي فـي الخارج.

وقد يكون من الدقة أن أقول إن ما حدث لم يكن مفاجـأة كاملة لنا بالمعنى المفهوم، كانت هناك نـذر واضـحة فـي الشهور الأخيرة عام ١٩٥٨ بتدهور الموقف السياسي العربي بعد الوحدة المصرية السورية، وتأزم العلاقات بـين ثـورة يوليو والأحزاب الشيوعية العربية، وكـان الخـلاف يـدور أساسا حول قضية شكل الوحدة.

هل تكون اندماجية كما أراد حـزب البعـث السـوري وجمال عبد الناصر أم تكون فيدرالية يكون لكل قطـر فيهـا حق تنظيم شئونه الداخلية وفق ظروفـه الخاصـة، وكانـت القضية الأولى التي يدور حولها الصراع في هذا النطاق هي قضية الديمقراطية السياسية التي كانت تتمتع بها سوريا قبـل الوحدة. وقد كان من الطبيعي أن يتمسك الحزب الشـيوعي السوري بتجربته الديمقراطية السياسية التي عرفتها سـوريا منذ سنة ١٩٥٤، وكان من الطبيعي أن يرفض الحزب حـل نفسه، بينما تظاهر حزب البعث بحل فصائله ظنـا منـه أن "غنائم" الوحدة هي له وحده!

في ظل هذه الظروف كان من الطبيعي أيضا أن تسـاند الأحزاب الشيوعية العربية موقف الحزب الشيوعي السوري، وأن يكون هذا هو موقف الشيوعيين المصريين كذلك.

لكن رغم بوادر العاصفة خلال عام ١٩٥٨ فقـد كانـت لدي ولدى غيري آمال في محاصرة النيران قبل أن ينفجـر الموقف انفجارا يستحيل تدارك آثاره. وكان مصـدر هـذه الآمال ثقتي في وطنية نظام عبد الناصر وشعبيته، وانفجـار ثورة تموز في العراق عام ١٩٥٨ التي اقتلعت كـل دعـائم النظام القديم ودمرته تدميرا، وموقـف الاتحـاد السـوفييتي المناصر لثورة يوليو والعراق وقناعتي باسـتحالة اسـتمرار نظام وطني في معاداة الإمبريالية والقيـام بحملـة صـليبية واسعة النطاق ضد الشيوعية في آن واحد وعشرات الأسباب الأخرى.

كل هذا ظل يمنحني الثقة بأن هنا أملا في رأب الصـدع والعودة إلى علاقات التعاون التي كانت قائمة من قبل بـين ثورة يوليو والأحزاب الشيوعية العربية. وبحكم عملي فـي صحيفة "المساء" كمحرر للشئون العربيـة والخارجيـة فـي الفترة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨ كنت على اتصال بكثير من أطراف

الأزمة، وعلى معرفة بكثير من أسرار هذه الفترة في المجال العربي، وحاولت كما حاول آخرون المساهمة في حل الأزمة على أساس مبدأ صحيح.

لكن يبدو أن القوى المصرية والعربية المحافظـة التـي كانت تعارض محاصرة الأزمة كانت أقـوى منـا بكثيـر، وكانت النتيجة تدهور الموقف خطوة بعد أخرى وخصوصـا أثر محاكمة بعض الضباط الناصريين في بغداد وإعـدامهم، وساعدت على هذا حالة الزهو التي ركبت القيادة السياسـية في مصر معتمدة على شعبية عبد الناصر عربيـا – وهـي شعبية لم يكن هناك شك في قوتها مما أدى بها إلى اعتمـاد سياسة "وحدنا في الميدان" التي بدأت بمحاولة تصفية الحزب الشيوعي السوري ثم امتدت بعد ذلك لتصفية حزب البعـث السوري، ولكنها انتهت في سبتمبر ١٩٦١ إلى تصفية نظـام عبد الناصر في سوريا!

ومن الأمانة أن أقول إن الأخطاء السياسية التي تـورط فيها الحزبان الشيوعيان في دمشق وبغداد آنذاك قد سـاهمت في رأيي في الوصول بنا إلى هذه النهاية الفاجعة لأول وحدة عربية في العصر الحديث، وإن كانت المسئولية الأولى فيما

حدث تقع في رأيي على أكتاف القيادة السياسية في مصر بما تورطت فيه هي من أخطاء سياسية وما تورطت فيه أجهـزة أمنها من جرائم.

وليس بالصدفة أن الذين طعنوا الوحدة المصرية السورية الطعنة القاتلة في سبتمبر سنة ١٩٦١ كانوا "أصدقاء النظـام" أعني الضباط السوريين الذين كانوا يعملون في مكتب المشير عامر في دمشق بقيادة النحلاوي مدير مكتبه. ولست أشك في أن هذا العمل قد تـم لحسـاب الرأسـماليين والإقطـاعيين السوريين الذين هددتهم إجراءات يوليو سنة ١٩٦١، ولكـن يظل السؤال الحيوي قائما: كيف تم الانقلاب علـى الوحـدة بهذه السهولة بل كيف انهار صرح الوحدة فـي دقـائق؟ إن الإجابة على هذا السؤال لا تكتسب أهمية تاريخيـة فحسـب وإنما ترتبط بمستقبل النضال من أجل الوحدة في المسـتقبل. وفي رأيي أن المفتاح الرئيسي في هذه الإجابة يتمثـل فـي عداء نظام عبد الناصر للديمقراطية السياسية والجبهة الوطنية الذي أعطى أعداء الوحدة فرصتهم الذهبية.

لم يكن إذن ما حدث من اعتقالات في فجـر أول ينـاير سنة ١٩٥٩ مفاجأة كاملة لي، وإن كانت اتساعها وشـمولها

هو العنصر المفاجئ، وينبغي أن أعترف أنـه حتـى بعـد وقوعها ظللت في الأسابيع الأولى أرجح أن الاعتقـال لـن يطول. وثبت خطأ هذا التقدير، وطال اعتقـال الشـيوعيين واليساريين المصريين، وامتد إلى ابريل سنة ١٩٦٤، أي أنه طال خمس سنوات وثلاثة شهور!

وقد قضيت هذه الفترة الطويلة في عدة معتقلات مختلفة.. بدأت بمعتقل القلعة ثم معتقل الواحات الخارجة، ثم عدت إلى سجن مصر استعدادا لتقديمي مع ستين آخرين إلى المحاكمة أمام مجلس عسكري يرأسه مدير سلاح المدفعية اللواء هلال عبد الله هلال في أكتوبر سنة ١٩٥٩ بالإسـكندرية، وبعـد المحاكمة عدنا من الإسكندرية إلى سجن مصر مرة أخـرى، حيث نقلنـا فـي ٧ نـوفمبر ١٩٥٩ إلـى معتقـل أوردي (أبو زعبل).

وفي أوردي (أبو زعبل) جـرت أول تجربـة تعـذيب جماعية على يد جهاز المباحث العامـة وضـباط مصـلحة السجون.. وليس لدي شك في أن هؤلاء الذين أشرفوا علـى هذه التجربة البربرية لابد أن يكونوا قد دربوا على يد بعض النازيين من الألمـان، لأننـي عنـدما زرت بقايـا معتقـل

"يوخنفالد" في ألمانيا عام ١٩٦٩ واستمعت إلى شرح الـدليل وجدت تشابها غريبا بين ما كان يجري فيـه مـن أسـاليب تعذيب وبين ما جرى في معقتل أوردي (أبو زعبل)!.. ولقد تولى قيادة هذا العمل الوحشي الذي سوف يرد وصـفه فـي صفحات الكتاب العميد حسن المصيلحي من جهاز المباحـث العامة واللواء إسماعيل همـت وكيـل مصـلحة السـجون، وانتهت هذه التجربة بفاجعة قتل الصـديق العزيـز شـهدي عطية في يونيو سنة ١٩٦٠، وعندئذ تحركت الدولة لوقـف التعذيب وإبعاد المسئولين عن هذا العمل الإجرامي. ومع ذلك فلا يزال المسئولون عن قتل شهدي عطية ومن قبله الدكتور فريد حداد حتى الآن دون جزاء!

وبعد توقف سياسة التعذيب في الأوردي نقلنا في يوليـو سنة ١٩٦١ إلى معتقل الواحات الخارجة، وبقينا هناك فـي ظروف معقولة نسبيا حتى أفرج عنا في إبريل سـنة ١٩٦٤ إثر إلغاء الأحكام العرفية وإقرار سياسة تصفية المعتقلات.

ومن الغريب أنني قدمت إلى المحاكمـة أمـام المجلـس العسكري بتهمة الاتصال بالأحزاب الشيوعية العربية، مع أن هذا الاتصـال كـان معروفـا للمسـئولين طـوال عـامي

١٩٥٧ و١٩٥٨. باعتباري محررا للشـئون العربيـة فـي صحيفة "المساء" كان الاتصال بقيادات هذه الأحـزاب مـن صميم عملي، بل لقد نشرت أكثر من حديث صـحفي فـي "المساء" مع قادة هذه الأحزاب، فلم يكن هنـاك إذن شـيء خاف على المسئولين فيما يتعلق بهذا الاتصال، ومازلت أذكر أنني كلفت من قبل المسئولين في سفارتنا بالأردن وسـوريا عام ١٩٥٧ بأعمال لم تكن مـن صـميم عملـي الصـحفي ورضيت القيام بها عن طيب خاطر لأنها كانت جـزءا مـن صميم نشاط مصر التحرري في المجال العربي آنذاك.

وضمن ذكريات كثيرة مازلت أذكرها مثلا أن الأحـزاب الوطنية في الأردن كانت قد دعت في مايو ١٩٥٧ إلى عقـد مؤتمر وطني في نابلس لمواجهة السياسة الرجعيـة للملـك حسين. وقد حاول الملك أن يمنع قادة هـذه الأحـزاب مـن الوصول إلى نابلس بكل السبل، ومن بينها محاصـرة كـل الطرق الخارجة من عمان بنقط حراسـة عسـكرية . وقـد تصادف وجودي في عمـان فـي هـذه الفتـرة الحرجـة، وإذ بالملحق العسكري لسفارتنا – الأستاذ فؤاد هلال يرجوني أن أخرج في إحدى سيارات السفارة ليلا ومعي بعض قـادة

الحزب الشيوعي والجبهة الوطنية متنكرين لأنقلهم من عمان إلى القدس حيث يتولى القنصل المصري في القدس نقلهم من هناك إلى نابلس لحضور المؤتمر. وقبلت رجـاءه بطبيعـة الحال ونفذت المهمة على ما فيها من مخاطر! ويشهد علـى هذه الواقعة الأستاذ فاروق القاضي الصحفي الذي صـحبني في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر.

لقد رويت هذه الواقعة حتى يدرك القارئ سخرية الموقف الذي كان علي أن أواجهه أمام المجلـس العسـكري متهمـا بأشياء يعلمها المسئولون وكانوا يرجون مني أداءها. وكـان من الطبيعي أن أدلي في تحقيقات النيابـة بحقيقـة الوقـائع وتفاصيل الأحداث وأن أطلب سماع أقوال عدد من المسئولين الذين كانوا من شهودها، ولم يكن أمام المجلـس العسـكري إلا أن يحكم ببراءتي.

ولقد سبق أن ذكرت أن ظروف معتقل الواحـات كانـت معقولة نسبيا في تلك الفترة بالقياس إلى ظروف المعـتقلات الأخرى. فقد كانت هناك حرية في الحركة داخل أسوار هذا المعتقل الكبير وكانت هناك مزرعة تبعد عن المعتقل بنحـو ثلاثة كيلومترات وكان في مقدورنا الذهاب إلـى المزرعـة

والعمل فيها إذ شئنا وقد استطاع المعتقلون بطريقتهم الخاصة توفير مكتبة ضخمة من الكتب السياسية والأدبيـة والعلميـة والفلسفية والتاريخية، وأجهزة ترانزستور كانت هي صـلتنا بإذاعات العالم المختلفة وكانت المكتبة عونا كبيـرا لهـؤلاء المثقفين الذين طال حرمانهم على احتمال السجن وقتل وقت الفراغ. واستفدت أنا شخصيا من هذه المكتبة أكبر اسـتفادة إذ استطعت بتنظيم وقتي أن أنجز خلال عام المسودة الأولى من كتابي "العلم والحضارة" الذي صدر عـام ١٩٦٧، كمـا أمكن بالتدريج الحصول على المجلات الأدبية والثقافية التي تصدر في القاهرة، وكان هذا حافزا لنا لإصدار مجلة حـائط أدبية كان لي شرف المشاركة في تحريرها.

ولم تكن صلتنا بالأهالي مقطوعة خلال هذه الفترة. فقـد كنا مع المحكوم عليهم بأحكام قضائية في مكان واحـد ولـم يكن يفرق بيننا إلا لون بدلة السجن. وكان للمحكوم علـيهم حق تسلم الخطابات من أهليهم وحق الزيارة مرة كل شـهر، على عكسنا نحن المعتقلين إذ كنا بدون حقوق.

ولكن بعد فترة وبالتحديد خلال السنة الأخيرة من حيـاة المعتقل، استطاع المعتقلون التغلب على هـذه الصـعوبات..

إذ دبروا وصول خطابات ذويهم لهم عن طريق إرسالها بالبريد باسم احد المسجونين، كما استطاع أهالي المعتقلين زيارة أبنائهم بكتابة اسم أحد المسجونين على أورنيك الزيارة عند الوصول إلى باب السجن، وعند الدخول إلى غرفة الزيارة يجدون ابنهم في انتظارهم! ومن الطبيعي أن إدارة المعتقل كانت على علم بهذا التحايل، ولكنها كانت تغمض عينيها وتتصرف وكأنها لا تعرف شيئا!

في ظل هذه الظروف استطاعت زوجتي أن تزورني أربع مرات.. في يوليو سنة ١٩٦٣، سبتمبر سنة ١٩٦٣، يناير سنة ١٩٦٤، وفبراير سنة ١٩٦٤، وجاءت هذه الزيارات بعد فراق أكثر من عامين. وفي ظل هذه الظروف تسلمت منها عددا من الرسائل يجد القارئ بعضها في هذا الكتاب. وفي ظل هذه الظروف استطاع المعتقلون والمسجونون القيام بنشاط ثقافي واسع سيجد القارئ صداه في بعض الخطابات المنشورة بالكتاب، فقد بنى المعتقلون مسرحا في الهواء الطلق وأخرجوا عددا من المسرحيات المعروفة ونشطت الفرق الرياضية في كرة السلة وكرة القدم.. الخ.

كما اتسع النشاط والخلاف السياسي.. وعندما أتأمل اليوم هذا الجانب فمن الممكن القول إن الخلافات السياسـية بـين الشيوعيين المصريين كانت قد بدأت قبل يناير سـنة ١٩٥٩. وكان محور هذه الخلافات هو الموقف من سياسة الحكومـة عام ١٩٥٨. فبينما كانت الأغلبية ترقب هذه السياسـة فـي حذر وتحفظ وبنظرة نافذة لقضيتي الوحـدة والديمقراطيـة، كانت مجموعة شهدي عطية تتخذ موقف التأييد شبه المطلق لسياسة عبد الناصر، كان هذا هو الموقف حتى ينـاير سـنة ١٩٥٩، ولكن بدأت بعد ذلك الانقسامات والخلافـات داخـل صفوف الأغلبية في المعتقل، إذ تورط قسم من هذه الأغلبية في تحليلات يسارية خاطئة لسياسة وطبيعة قيادة ثورة يوليو وصلت إلى حد الترويج لنظرية رأسمالية الدولة الاحتكارية..

الخ. بينما ظل الجزء الآخر محافظا على نظرة واقعيـة لنظام عبد الناصر.. لا ينكر عليه أصوله الوطنية التقدميـة وإن ظل ناقدا للنظام لمواقفه غير الديمقراطية وموقفه الجامد من قضية الوحدة.

في الواحات إذن كانت هناك ثلاثة تيـارات سياسـية.. أحدها يكاد يقول إن الاشتراكية تتحقـق بالفعـل علـى يـد

عبد الناصر، والآخر يرى في عبد الناصر ممثلا للاحتكارات المصرية والأجنبية والتيار الثالث يرى في النظام علامـات حكم فئات البورجوازية الصغيرة بكل ما فيها من مميـزات ثورية كبيرة وتناقضات ومواقف معادية للديمقراطية..

ولقد كان طبيعيا أن تصدر مجلات سياسية في الواحـات تعبر عن هذه التيارات الثلاثة وأن يشتد الصراع والجـدل. وأحيانا كان يتحول إلى تهجمات شخصية أساءت إلـى جـو المعتقل إساءة بالغة . ولعل هذا الوضع كـان أكبـر محنـة فكرية ونفسية اجتزتها في الواحات. وسوف يـرى القـارئ أصداء هذا في الخطابات المتبادلة بيني وبين زوجتي.

بعد هذه الصورة العامة أود أن أوضح عددا من الحقائق الخاصة بهذه الرسائل.. لقد ظل الاتصال بيني وبين عايـدة متصلا طوال السنوات الخمس، ولم ينقطع إلا فترات وجيزة خلال فترة التعذيب في (أبو زعبل). وكثيـر مـن رسـائلها وصلني بالبريد، غير أن بعضها وصل عن طريـق رسـل شخصيين تطوعوا إما شهامة أو مقابل نقود أن يحملوا إليهـا خطاباتي أو يأخذوا منها خطابات لتسليمها لي. ولكنـي لـم

أستطع الاحتفاظ برسائلها في السنوات الثلاث الأولى خوفـا من التفتيش المفاجئ لنا داخل المعتقل، وما كان أكثره!

واحتفظت فقط بخطاباتها خلال الفتـرة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤ إبان إقامتي بالواحات. أما رسائلي لها طوال السنوات الخمس فقد احتفظت هي بها في عناية فائقة. وهكذا وجدت عند إعداد هذا الكتاب كل خطاباتي لها وبعض رسائلها لي..

ولعل هذا يفسر للقارئ ما سوف يلاحظه من أن رسائلها لي في الكتاب لم تبدأ إلا في عام ١٩٦٢.

ومع ذلك فالرسائل المنشورة ليست إلا جزءا من الرسائل المتبادلة بيننا، ولم أختر من هذه الرسائل إلا ما رأيت أنه ذو دلالة خاصة في متابعة أحداث الكتاب. وبطبيعة الحال هناك عشرات أخرى من الخطابات الشخصية التي لم أشر إليها في الكتاب.

تبقى قضية التوقيع في نهاية الرسائل.. لقد كنـت غالبـا أوقع خطاباتي باسم "كامل" وليس هذا اسما سريا.. إن هـذا هو اسمي الحقيقي في أسرتي وبين أهلي عندما كنت صغيرا، وقد درجت العائلات في زماننا على التقليد الغريب بأن يكون للمولود اسم في شهادة الميلاد غير ما ينادى به في المنزل.

أما هي فقد حرصت على التوقيع باسم "عنايات" خوفا من أن تقع الرسائل في أيدي أجهزة الأمن، وكانت تناديني باسم "سعد" في هذه الخطابات لأنها كانت مرسلة باسم المسجون الشيوعي الأستاذ سعد رحمي، ومكتوبة كأنها من شقيقته!

ولقد حرصت على نشر هذه الرسائل كما هي دون إضافة أو تعديل.. اللهم إلا تصحيح بعض الأخطاء اللغوية أو إعادة صياغة بعض الجمل الركيكة مع الاحتفاظ بالمعنى كما هو، لأنني حريص على الاحتفاظ بالطابع التاريخي والإنساني – بكل جوانب قوته وضعفه – للرسائل.

ومع ذلك فلست أقصد من هذه الرسائل تأريخا لهذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر.. إن هذا أبعد ما يكون عن ذهني، وإن كنت أزعم أن هذه الرسائل تعطي القارئ صورة عامة سريعة عما جرى في هذه الفترة من تعذيب وأحداث هامة ونشاطات مختلفة.

إن ما دعاني إلى نشر هذه الرسائل في هذا الوقت بالذات هو وفاة زوجتي عايدة ثابت، وما وجدته من تشجيع من عدد كبير من الأصدقاء – المطلعين على هذه الرسائل – على

نشرها، ولم أقصد من النشر أن أقدم كتابا سياسيا في المحـل الأول.

ولكني أود أن أوضح أنني لست راغبا بهذا النشـر فـي المشاركة في حملة التشهير التي يتعرض لها عبد الناصـر، بل واسمه في السنوات الأخيرة من عناصر رجعية مقرونـة بعدائها التقليدي للشعب واحتقاره، والتي تسـتهدف القضـاء على كل المنجزات الإيجابية لثورة يوليو.

وغني عن البيان أنني كنت – ومازلـت مقتنعـا بـأن عبد الناصر هو استمرار حقيقي لعرابي ومصـطفى كامـل وسعد زغلول.. وإن كان استمرارا أرقى، وأن الذي ينكر أن عبد الناصر هو أحد القـادة المرمـوقين للنضـال الـوطني والعربي ضد الاستعمار في العالم الثالث في العصر الحديث هو شخص إما مغرض أو سفيه! ولا أعتقد أن هناك شخصا واحدا على أي قدر من الموضوعية يستطيع أن ينكر قيمـة التحولات الاجتماعية الهامة التي قادها عبـد الناصـر فـي المجتمع المصري.

وليس معنى هذا أنه لم توجد سلبيات هامة ولم ترتكـب أخطاء وجرائم في ظل عبد الناصـر ، لقـد سـبق لـي أن

أوضحت رأيي تفصيلا في هذه السلبيات، وجوانب القصـور في فكر الثورة وأعمالها في "محاورات اليسار المصري مع توفيق الحكيم". "وقد نشرتها دار القضايا البيروتية منذ عام".

والأكثر من هذا أنني وآخرين كثيرين حاولنـا أن ننبـه عبد الناصر والنظام عموما – إلى خطورة هذه السلبيات في حينها وعندما وقعت! وجاء التنبيه علـى صـورة مقـالات ومطبوعات وخطب انتخابية (سنة ١٩٥٧ عندما كنت مرشحا بدائرة الوايلي) ورسائل من بعض المثقفـين رفعـت إلـى عبد الناصر من خلال أصدقائه والمتصلين به. وربما دفعنـا ثمنا باهظا لهذا النقد في وقت كان معظم قادة حملة التشـهير الحالية يسبحون بحمد عبد الناصر ويعلنون تأييدهم الأعمـى له بالحق وبالباطل!

ولأن عبد الناصر كان ولي نعمة كثير من قـادة حملـة التشهير التي تبلورت في السنين الأخيـرة. فـإن الإنسـان لا يملك إلا أن ينظر باشمئزاز وازدراء إلى كثير من قـادة هذه الحملة الذين تعودوا أن يأكلوا على كل الموائد!

إن هذه الرسائل إذن لا تستهدف التشهير وإنما تحكي أولا وأخيرا قصة حب وصمود بين زوجـين شـابين مشـتغلين

بالعمل السياسي أدركتهما أعاصير الحركة السياسية بمحنـة اعتقال الزوج أكثر من خمس سنوات وتشريد الزوجة طوال هذه الفترة ومع ذلك فقد اسـتطاع هـذا الحـب أن يصـمد للاختبار.

ولهذه القصة الإنسانية جانب آخر لا يخفى على القارئ، أن العواطف الملتهبة التي تبدو فـي هـذه الرسـائل لـيس مصدرها فقط أنها رسائل زوجة كانت في الرابعة والعشرين من عمرها وزوج كان في الخامسة والثلاثين من عمره بكل ما يعنيه هذا من التهاب العواطف وتأجج الأحاسـيس بـين عاشقين، وإنما مصدرها أيضا ربط فكري قوي ظل يقـرب بيننا ويبعث الدفء في حياتنا على طول السنين فـي ظـل الحرية. وبامتزاج هذا الرباط الفكـري الاشـتراكي بالحـب الإنساني تولد لدى كل منا إحساس عميق بأنـه لا يسـتطيع الاستغناء عن الآخر، وربما جرى بيننا بين الحين والآخـر ما يجري بين كل زوجين من مشاحنات صغيرة، ولكن ظـل هذا الشعور الجارف قويا دائما وفي كل الظروف.

لكن عايدة ثابت ماتت في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥ إثـر فاجعة مروعة لم يقدر أي منا أنها سوف تنتهي إلـى هـذه

النهاية، ولقد أفاضت الصحف والمجلات المصرية والعربية في ذكر الحادث الذي أدى إلى الوفاة وإن كانت قـد ذكـرت بعض التفاصيل غير الصحيحة، ولذا يكفيني هنـا أن أذكـر الوقائع الأساسية للحادث وتطوراته.

في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٥ كنت عائدا بالطائرة من روما حيث حضرت اجتماعا للخبراء الأخصائيين لمنظمة الأغذية والزراعة الدولية. وذهبت زوجتي وابنتي حنان لانتظـاري كالعادة في المطار وقبل وصولي بربع ساعة هـاجم كلـب ضال ابنتي حنان وعقرها في قـدمها اليسـرى، واندفعت زوجتي تدافع عن حنان فهجم الكلب عليها وطرحهـا علـى الأرض حيث عقرها في ساقها الأيمن وكفها الأيمن أيضـا. ولقد ذهبا إلى مستشفى منشية البكري فـورا حيـث جـرت الإسعافات الأولية.

ثم بدأت المستشفى في اليوم التالي حقن زوجتي وابنتـي بالمصل المضاد لمرض الكلب لمدة عشرين يوما أي من ١٨ أكتوبر حتى ٥ نوفمبر، وبدأ تحسن واضح من العلاج، الأمر الذي دفع زوجتي إلى العودة إلى عملها الصحفي في اليـوم الخامس عشر من الحادث، وبناء على مشورة الأطباء، ولقد

ساعد على خلق جو الاطمئنان الكاذب بيننا جهلنـا الكامـل بأعراض المرض، وما قاله أطباء مستشفى منشية البكـري ومستشفى الكلب والأطباء الخصوصيون من أن المصل مؤكد المفعول ومن أن أعراض المرض – إن بدت – فإنما تظهر في اليوم الحادي عشر من الحادث ولما مضى اليوم الحادي عشر حتى الثامن عشـر دون تعقيـدات أو شـكوى شـاع الاطمئنان في نفوسنا، وسافرت يوم ٦ نوفمبر بعـد انتهـاء العلاج لحضور مؤتمر لليونسكو العربي في قطـر، ولـيس يخطر على بالي أن وداعها لي على باب منزلنا هو الـوداع الأخير!

نعم لقد شكت ليلة سفري من ألم في ذراعهـا الأيمـن، ولكن ما أسهل ما نسينا – نحن الاثنان – هذا المجهود الـذي بذلته في كتابة مقالاتها بيدها اليمنى أثر عودتها إلى العمـل الصحفي، فضلا عن شكواها منذ سنوات من آلام روماتيزمية في ذراعيها وقدميها.

الأغرب من ذلك أنني تحدثت معها تليفونيا من قطر قبل وفاتها بأربع وعشرين ساعة ولم تكن تشكو إلا من ألم شديد في ذراعها الأيمن، لقد بدأت التعقيدات الصحية خلال الأربع

والعشرين ساعة الأخيرة لها، وتدهور الموقف فجأة ودخلـت في غيبوبة ثم فاضت روحها الطاهرة في صباح الاثنين ١٠ نوفمبر!

لقد ماتت عايدة ثابت في أنضج سنوات حياتها.. وبعد أن بدا أن القدر قد ابتسم لنا بالبيت السعيد والابنة التي هي قـرة عين والديها، جاءت هذه الفاجعـة الخاطفـة لتخنـق آمـالا مزدهرة في حياة سعيدة طويلة لنا نحن الثلاثة. وهكذا شـاء القدر أن يحرمني وابنتي من أعز وأحب من كان لنـا فـي الحياة!

كانت عايدة ثابت إنسانة بكل معنـى الكلمـة.. رقيقـة كالنسيم، باسمة كالزهور، في دماثة الكلمة الطيبـة، وكانـت دائما قادرة على أن تشيع في كل من حولهـا روح البهجـة والسرور مهما كانت الظروف. تصدق عليها كلمة الكاتـب الأمريكي مارك توين حين قال في "يوميات حواء" مشيرا إلى زوجته "أينما حلت كانت هناك جنة"!

ولكن عايدة ثابت كانت شجاعة أيضا خصوصا في الدفاع عن المضطهدين والمظلومين والفقراء إلى الحد الـذي قـد يعتبره الناس تهورا. كانت تكره الظلم والاضطهاد إلى أبعـد

الحدود، وكان قلبها دليلها في هذا الميدان، تصدق عليها أيضا كلمة تولستوي حين وصف مكسيم جوركي بأنه صاحب "القلب الحكيم" لقد كان قلبها هو دليلها إلى الحكمة؛ لأنه كان يتسع لمحبة الآخرين وينشغل بالآخرين قبل أن ينشغل بشئونها! ولقد بدا لي دائما أن عايدة ثابت والموت شيئان متناقضان؛ لأنها كانت على الدوام للحياة.

فما أقسى الحياة بعدها على الذين عرفوها جيدا وأحبوها من صميم قلوبهم!

عبد العظيم أنيس



بعد أيام من وصول خطابها الأخير، وبالتحديد في ٣ أبريل سنة ١٩٦٤ تم ترحيلي مع آخرين من زملائي إلى السجن الحربي بالقاهرة. نقلنا بالسيارات إلى سجن أسيوط حيث بقينا في فنائه عدة ساعات، وفي مساء نفس اليوم أقلنا بالقطار إلى محطة الجيزة حيث وصلناها الساعة السابعة من صباح يوم ٤ أبريل، ومن محطة الجيزة نقلتنا سيارات وزارة الداخلية إلى السجن الحربي.

خلال ساعات الليل التي قضيناها في قطار أسيوط – الجيزة حاولت أن أنام وفشلت من طول الإرهاق وشدة الانفعال.. هأنذا أعود مرة أخرى إلى زوجتي وأولادي وأهلي وشعب مصر، هأنذا أعود من جديد إلى أرض الوطن!

لكأنما كنت منفيا خارج البلاد، رغم أني أعلم علم اليقين أن أرض الواحات الخارجة هي جزء لا يتجزأ من أرض الوطن.. لعل هذا يثبت مرة بعد مرة أن الوطن ليس هو الرمال والشجر والأرصفة والمباني، وإنما هو الناس.. الفلاحون والعمال والطلاب والمثقفون والجنود وكل من يضع لبنة في حاضر مصر ومستقبلها!

هأنذا أعود من جديد فأشرب من ماء النيل بعد أن حرمت منه سنوات، وأمتع عيني بخضرة الوادي، وحقوله السندسية أمتع أذني بأصوات أولاد البلد وضحكاتهم.

أحسست في القطار بمشاعر شديدة الشبه بمشاعري يـوم عودتي من البعثة عام ١٩٥٢، لحظة اقتراب السـفينة مـن شاطئ بورسعيد. لم أكن أعرف واحدا من المنتظرين علـى الشاطئ ولكني كنت تواقا إلى احتضانهم جميعا كأنمـا هـم جميعا أهلي وأخوتي، وعندما نزلت إلى الشاطئ وقابلني أول حمال ابتسمت في وجهه ابتسامة عريضة وشددت على يـده مرحبا كأنما نعرف بعضا البعض منذ زمان طويل. وأغلـب الظن أنه نظر إلي في دهشة لا يفهم لهذه التحية الحارة سببا!

حاولت إذن أن أنام فلم أفلح، فشغلت نفسي بنظم قصـيدة بالعامية تعبر عن مشاعر هذه اللحظة، ودخلنا السجن الحربي حوالي الساعة التاسعة صباحا. ألقيـت نظـرة علـى فنـاء السجن.. سجن ككل سجون الدنيا يبدو عاديا في مظهره مـع أننا كنا نسمع طوال السنوات الخمس عـن التعـذيب الـذي يجري في داخله ما يقشعر له البدن. ورأيت كلبين في فنـاء السجن يتسكعان في تكاسل من قلة العمل فيما يبدو!

كانت ابتسامات ضباط المباحث العامة فـي انتظارنـا، وشيء غير قليل من الأدب واللياقة في المعاملة.. قالوا لنـا إننا سوف نكون في بيوتنا بعد ثلاث ساعات عندما ينتهـون من ملء استمارات البيانات اللازمة وتصوير كل واحد منا!

وسألت ضابطا لا أعرف اسمه – وإن بدا أنـه يعـرف اسمي – إن كان في استطاعتي أن أتحدث مع أخوتي تليفونيا لأخبرهم أنني بالقاهرة وأنني سأكون معهم بعـد سـاعات ، فرحب بطلبي على الفور، وكانت الصعوبة الأولى أن أتذكر أرقام تليفونات منازل أخوتي بعد هذه الغيبة الطويلة، ولكني تذكرت رقم تليفون شقيقتي فاطمـة فـي العباسـية وأدرت القرص فلم أجد ردا وضحك الضابط قائلا أن أرقام تليفونات العباسية قد تغيرت خلال هذه السنوات، حاولـت أن اتصـل بشقيقتي فتحية في الدقي، وجاء صوت زوجها واضحا يسأل: من المتكلم؟ وعندما أجبت صرخ الشيخ الكهل – كأنما مسته صاعقة – مناديا على شقيقتي، وجرت إلى التليفـون وهـي تصرخ وتضحك وتزغرد وتبكي في آن واحـد لا تريـد أن تصدق. كان من الضروري أن أضبط عواطفي وأن أطلـب منها بسرعة أن تتصل بعايدة وأن تعرف العائلة أنني سأذهب

إلى منزل شـقيقتي فاطمـة فـي العباسـية وأن علـيهم أن ينتظروني هناك. ولم أعطها فرصة أكثر من ذلك ووضـعت السماعة خوفا على نفسي من الانفعال!

ولا أعرف ما حدث بالضبط بـين أخـوتي بعـد هـذه المكالمة، ولكني علمت بعد ذلك أن وفدا مـن العائلـة ظـل ينتظرني أمام الباب الأمامي للسجن الحربي مـن العاشـرة صباحا حتى الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم!

أما أنا فقد فتح لي – ولثلاثة من زملائي – الباب الخلفي للسجن الحربي في الساعة الرابعة بعد الظهر تماما وقيل لنا: انصرفوا!

وخرجت إلى دنيا الحرية.. على جسدي سـترة قديمـة كانت ملقاة في مخازن سجن الواحات سنوات، وفـي يـدي كيس ممزق من القماش به حاجيات الحلاقة ومعجون وفرشاة أسنان وغيار داخلي وكتاب عن موسيقى الشعر وآخـر فـي المنطق وبعض أبحاثي القديمة في الرياضيات، وفي جيبـي ورقة بخمسة جنيها هي كل ما أملكه في هذه الدنيا..

ومن السجن الحربي دلفت في دقيقة إلى طريق صـلاح سالم.. شارع واسع لا أعرف عنه شيئا لأنه أنشـئ خـلال

غيابنا. أين أنا بالضبط في القاهرة؟ لم أكن أدري.. حاولـت أن أوقف تاكسيا فلم أفلح.. وعندما جاء أول أتوبيس ركبـت وليس في ذهني أية فكرة إلى أين يذهب! سألت الكمسـاري: إلى أين يذهب هذا الأتوبيس فنظر إلي شذرا – وكأنني مـن أهل الكهف – وقال: أين تريد أن تـذهب؟ قلـت العباسـية، فأجاب: نحن في العباسية!.. اعطتيه الورقة ذات الجنيهـات الخمسة فنظر إلي في امتعاض وقال: ما فيش فكـة، قلـت : ليس في جيبي مليم آخر وبدا عليه الضيق وفي عينيه تساؤل كأنما يقول لنفسه: من أين هؤلاء الناس! آه لو يعرف.

وتركني يائسا. ووجدت بعد ثلاث محطات أنني عند باب كلية الهندسة جامعة عين شمس نعم، هـذا مكـان أعرفـه ويعرفني لأنني قمت بالتدريس فيه منذ سنوات، وقفزت مـن الأوتوبيس في عجلة وركبت أول تاكسي صادفته وأعطيـت السائق العنوان وبدا على السائق الدهشة. فالمسافة صـغيرة لا تستحق ركوب تاكسي ولكني أصررت..

وعندما ارتقيت درجات العمارة – متجاهلا المصـعد – في سرعة وضغطت على جرس الشقة لم يكن فيهـا غيـر شقيقتي وابنة عمي وأمها. أما الباقون فقد كانوا هناك.. عنـد

الباب الأمامي للسجن الحربي ينتظرون! كانت شقيقتي تنتظر عودة صبي المكوجي بالفساتين التي أرسلتها للكي في هـذه المناسبة، وذهبت ابنة عمي تفتح الباب في تثاقل للمكـوجي الصغير فوجدتني أمامها، وإذا بها تقع على الأرض مغشـيا عليها!

ثمة لحظات شديدة القسوة من شدة الانفعال في حياة كـل إنسان، وتلك كانت إحدى هذه اللحظات في حيـاتي، لسـت أذكر ماذا فعلت بالضبط ولا ماذا فعلوا وقالوا لـي، ولكنـي مازلت أذكر أنني ظللت لـدقائق أسـمع أصـواتا غامضـة متضاربة متناقضة كأنني في حلم رهيب، لا أفسر منها شيئا!

وعندما هدأ كل شيء عرفت أن عايدة ثابت بالإسكندرية في زيارة لخالها، وأن أولادي، أيضا خارج القاهرة.

لكنها عادت في المساء، وكان لقاء .. وأي لقاء!

قال : من؟

قالوا: سليمان الحلبي

ليغفر لي الصديق الأديب ألفريد فرج اقتباس هذا العنوان من مسرحيته "سليمان الحلبي" التي مثلت على المسرح القومي في الستينيات بنجاح هائل – فحتى اليوم – بعد ما يقرب من عشرين عاما على هذا الحدث الفني الكبير – مازلت أذكر بعضا من مشاهده وكأنني رأيتها بالأمس فقط!

كان المشهد الذي هزني بشكل خاص هو مشهد ذهاب سليمان الحلبي مع صديقه محمد المصري – وهما من أبناء الأزهر وتلاميذ أساتذته المخلصين حقا لطريق الرب – يحاولان مقابلة الشيخ عبد الله الشرقاوي . وسليمان لم يكن يملك إلا أن يقارن في عقله القلق وضميره المعذب بين موقف الشيخ الشرقاوي الذي قبل أن يهادن المحتل الفرنسي بونابرت "ساري عسكر الفرنسيين" ويدخل عضوا في ديوانه، وبين موقف مولانا الشيخ السادات الذي آثر السجن على مثل هذا الموقف. ومحمد يحاول جاهدا أن يثني سليمان عن زيارة الشرقاوي، لكن سليمان يصر ويقول لصديقه "علمني الشرقاوي فأضناني بالقلق المبارك أيكره أن أهديه بعض وساوس المروءة؟".

فلما نادى المنادي باسم سليمان الحلبي في منزل الشـيخ الشرقاوي، بهت الشيخ العجوز يستعيذ بفطنته أن تهديه لسبب هذه الزيارة المفاجئة فيتهيأ لها بمـا يناسـبها مـن الـتحفظ أو الترحاب، لكن فطنته لم تسعفه، فقال: من؟ قالوا: سـليمان الحلبي!

وقال الكورس في المسرح: سـليمان الحلبـي، سـليمان الحلبي، سليمان الحلبي ، اسم ليس له رنين نعرفه، لا رنـين الذهب الإبريز ولا رنين الفضة الصافية، ولا رنين البرونـز المدوي، ولا الصفيح الجعجاع، ذلك أنه عملة جديدة لم يخبر رنينها بعد سلطان أو شحاذ، شاعر أو مبدع، مستعمر متأله، أو عبد ذليل، رنين سوف يدهش العقول فيما بعـد ويطـيش الصواب، "بهت له الرجال وصرخت النسـاء، تصـدت لـه الأبطال وتصدت به الأبطال، أطلقه الحب ورجعـه الحقـد، وهكذا صهرته نوازع العار ونوازع الشرف، ولم يكن أحد قد اختبره بعد أو تخيل معدنه".

وها نحن من جديد – بعد نحو مائة وخمسـين عامـا – نشهد في المشرق العربي سليمان آخر جديد، له أسماء عديدة على وجه اليقين، فهو أحيانا يعرف باسم سـليمان النابلسـي

أو سليمان المقدسي، أو سليمان المغزي وأحيانا أخرى يعرف باسم سيلمان البيروتي أو سليمان الطرابلسي، وهـو اليـوم يعرف باسم سيلمان الصيداوي.

إنه لا يتحرك وحده، وإنما يتحرك كالطيف فـي جبـال لبنان وشعابها وسط مجموعة صغيرة، وهو لا يحمل في يده خنجرا، كما كان يحمل سليمان الحلبي، وإنما يحمل في يـده مدفع كلاشنكوف وعلى كتفه صارخ أو يقود سـيارة مليئـة بالمتفجرات وهو يتجه إلى قاعـدة مـن قواعـد الاحـتلال الصهيوني أو الإمبريالي..

الآن يعرف العالم العربي ولا يجهل رنين هـذه العملـة الجديدة، إنه رنين الذهب الإبريـز، والآن خبـر السـلاطين المتواطئون والاستعماريون المتألهون والصهاينة المتجبرون رنين هذه العملة الجديدة، وبسببها خرجت قـوات الاحـتلال الأمريكي من بيروت وانسحب الأسـطول السـادس وبـدأ الصهاينة يبحثون عن مخرج، وفزع المهادنون والمتواطئون كلما سمعوا رنين هذه العملة الجديدة؛ لأنهم يحسون في قرارة أنفسهم أنها سوف تصوغ المستقبل البعيد للوطن العربي مهما كانت التضحيات والآلام.

وكما فرز سليمان الحلبي موقف الشيخ الشرقاوي المهادن عن موقف الشيخ السادات المتمرد، كـذلك يفعـل سـليمان الحديث. فيفرز الناس إلى جانبين: جانب القابلين بالمهادنـة مع الأجنبي المحتل، وجانب المتمردين المصممين على دحر الاستعمار والصهاينة وطردهم بقوة السلاح. جانب الراضين بالتسوية في ظل الضعف لأنها تحقق مصـالحهم الخاصـة، وجانب الذين ترتبط مصالحهم الاجتماعية بتحريـر الأرض وانتشار العدالة وإعلاء قيمة العمل.

وكلما سقط سليمان واحد في جنوب لبنان أو في فلسطين، ظهر عشرات بل مئات يحملون اسم سليمان، لا أحد يعـرف على وجه الدقة وجوههم، وبعضهم يولـد ويحمـل سـلاحه ويحارب ثم يسقط في المعارك دون كلمة واحدة. لكننا فـي العالم العربي نعرف رنيـنهم بأنـه لـيس رنـين الصـفيح الجعجاع!

وكما ثار سليمان حلبي على الذين دعوه ألا يركب أجنحة الشطط وينسى قيمة الحياة وقال لهم: "وهزيمة أمة كريمـة.. ما قولك.. أن نلبس العار ونأكل الندم، وعندئذ يصبح الجحيم نظام حياة.. قدم رجولتك للمهانة وأطفالك لأنيـاب الجـوع

وعنق جارك للمشنقة .. اركع وادفع! وعش لتتحـول بفعـل الساحر الفرنسي الأسود من رجل إلى كلب.. واسجد لغيـر الله ما تشاء، وأرق ماء وجهك وعينيك ما تشاء، فقد منحـك كليبر ساري عسكر الفرنسيين أمان الحياة".

كذلك يقول سليمان الحديث، وأكاد أسمع صوته الهادر:

"وصبرا وشاتيلا، والمستعمرات الصهيونية في الضـفة، والتخطيط لاحتلال جنوب لبنان بجيوش العملاء من أمثـال أنطوان لحد، والأسـلحة الأمريكيـة لإسـرائيل، والحلـف الاستراتيجي بين الصهاينة وواشنطن، ومشروع ريجان الذي يهدف حق تقرير المصير.

ما قولك : أن نلبس العار ونأكل الندم في ظل تسـويات هي والاستسلام سواء، وعندئذ يصبح الجحيم نظام حياة.

ويعلو صوت الصفيح الجعجاع!

فكم بكينا

دمعتين ووردة!

حين طويت آخر صفحة من كتاب فريدة النقاش الجديد (السجن – دمعتان ووردة) أخذت أسأل نفسي: لماذا أقبلت على قراءة الكتاب بهذا النهم الغريب مع أن عالم السجن ليس جديدا بالنسبة لي وعلى كثرة مشاغلي في هذا الموسم من السنة الأكاديمية؟

هل يكفي أن أقول إن صداقتي لفريدة هي السبب؟ لا أعتقد هذا سببا كافيا..

قلت: ربما كان السبب أن عالم سجن النساء هو الجديد وربما كان السبب الأهم أن هذا الكتاب هو أول شهادة أقرؤها لمناضلة مصرية عن السجن مع كثرة شهادات الرجال الذين دخلوه لأسباب سياسية بدءا من كتاب العقاد (في السجن) وانتهاء بكتاب فتحي عبد الفتاح (شيوعيون وناصريون) وكتابي (رسائل الحب والحزن والثورة).

نعم.. هذه إذن فريدة النقاش المناضلة والأم والزوجة والصحفية تدلي بشهادتها عن السجن الذي قضت فيه نحو شهرين في أغسطس ١٩٧٩ عندما اقتادوها هي وزوجها حسين من مصيف جمصة ثم أعيدت إليه مرة أخرى في ٣١ مارس ١٩٨١ وقضت فيه نحو تسعة أشهر.

تم هذا كله في مرحلة من أخطر مراحل مصر الحديثـة مرحلة الردة الساداتية عندما خان نظام السادات كل تراثنـا السياسي والوطني والثقافي، وأدار ظهره لمصالح هذا الوطن وتلك الأمة وداس باسم السلام كرامة الشعب وشهداءه بأحذية الغزاة الصهاينة والأمريكيين، عندما زيف الاستسلام فقيل أنه السلام، أو بمعنى آخر عندما تمت خيانة كل التراث النضالي لثورة عرابي وثورة ١٩١٩ وثورة يوليو المجيدة تحت أعلام كامب دافيد.

كانت التهمة التي وجهت إلى فريدة النقاش هي عضـوية الحزب الشيوعي المصري لكن كان ذلـك شـكلا لا أكثـر ولا أقل، أما المضمون الحقيقي للتهمة فهو نشاطها ونضالها في صف القوى الوطنية المصرية التي وقفت – دون حساب للربح أو الخسارة – ضد هذه الردة السياسية ضد الاستسلام وخيانة مصالح المواطن، فقالت ضـمن ألـوف: لـن يمـر الصهاينة من هنا ونحن في القاهرة وهي لا تزال صامدة في هذه المعركة الحاسمة معركة نكون أو لا نكون: لـم تطـو أعلامها ولم تنزو في ثياب الحداد!

عندما نقفل آخر صفحة من كتابها يأتينا من بعيد صـوت فنان الشعب اللبناني مارسيل خليفة وهو يغني قصيدة الشاعر العربي:

أجمل الأمهات التي انتظرت ابنها

أجمل الأمهات التي انتظرته

وعاد مستشهدا.

فبكت دمعتين ووردة ولم تنزو

في ثياب الحداد.

ها نحن دائما وعلى طول مسيرتنا الصعبة نبكي دمعتين ووردة، نترك للأجيال التي تلينا ليس دموعنا الغزيرة وإنمـا هذه الوردة التي تعهدناها من طينة شهدائنا من محبتهم لهـذا الوطن وذلك الشعب بعماله وفلاحيه وجنوده ومثقفيه.

عندما سيقت فريدة في المرة الأولى إلى زنزانة قذرة في مبنى المباحث العامة سألها الحارس العجوز: لمـاذا جئـت؟ قالت : لا أدري ولكنني عضو في حزب التجمع الذي تلاحقه الحكومة. قال الحارس العجوز: حين تشتد العواصف لـيس عيبا أن ينحني الناس يا ابنتي.. تذكري أولادك.. كيف يكون حالهم إذا تعرضت للحبس الطويل.

لكن لهذا الشعب حكمة أخرى غير حكمة هذا الحـارس العجوز، غير حكمة الربح والخسارة وربما لـم يكـن هـذا الحارس يعرف أن فريدة وزوجها حسين قد تركا وراءهمـا عندما أتيا إلى السجن طفلين في المنزل هما رشا وجاسـر، كذلك كان حال فتحية زوجة زكي مراد عندما أخذوها بعـد مصرعه بشهور فتركت وراءها أربعة أطفال أصغرهم لـم تكن قد أكملت عامين من العمر، وكذلك فعلوا بشاهندة زوجة شهيد كمشيش صلاح حسين الذي اغتاله الإقطـاعيون فـي زمن عبد الناصر فتركت وراءها ابنتها الصغيرة باسمة وهي مأخوذة إلى السجن.

فريدة وفتحية وشاهندة.. هذا الثلاثي الفذ من نساء مصر في سجون السادات لم يدعين بطولة زائفة في هذا الموقـف فكم سالت دموعهن حزنا على فـراقهن لأطفـالهن، لكـنهن تعلمن الصبر والصمود والتواضع وكان وضـوح الرؤيـة عاملا هاما في هذا التماسك وتلك الصلابة. كتبت فريدة مـن السجن إلى ابنها جاسر تقول: نحن يا حبيبي نعيش في ظـل هيمنة هؤلاء الذين ابتذلوا ثقافتنا الوطنية والقوميـة وتراثنـا ليقيموا أدلة على طيبة الظالمين.. ذلك ذنب عظيم لا يكفـر

عنه شيء مهما كبر.. فما بالنا لو كانت كفارتهم ذلك الابتهال الزائف إلى الله والتفتيش في القرآن الكريم لاستخراج شهادة براءة لأعدائنا.. إن صلاتهم الحقيقية يا حبيبي وقرابينهم تقدم للبنتاجون والكونجرس والكنيست فهل ننتظر من هـؤلاء أن يعرفوا لغة الغياب والحضور هل تحزن يا حبيبي لأننا ننتمي إلى هذا الميلاد الصعب للعالم القادم؟

نحن فقط نغيب بهذا العذر القاهر فلا تحـزن وانتظرنـا دائما.

وفي سجن القناطر كان صوت شاهندة النحاسـي يـدوي بحكمة القلب الذي عرف طريقه إلى تلك الحكمة من خـلال المأساة.. مأساة مصـرع الـزوج برصـاص الإقطـاعيين واستشهاد شقيقها الطيار أشرف بقذيفة أمريكية صهيونية في آخر يوم من أيام حرب الاستنزاف على ضفاف القناة.

ولم تتردد عندما رأت أحد ضباط المباحث يهم بالصـلاة في أن تمسكه من ذراعه وتقول له: "إن الله لن يقبـل هـذه الصلاة أبدا.. تعذب الناس ثم تتصور أن المغفرة سـهلة! دا بعدك.." كما لم تتردد في أن تنتزع بيديها القـويتين أسـلاك

الشباك الذي حاول ضابط المباحث أن يضعها على زنزانتها وزنزانة صافي ناز كاظم في محاولة لمنعهما من اتصال.

كان مكسيم جوركي يحكي للكاتب العظيم تولستوي كيف عمل في مرحلة من حياته بستانيا في منزل جنرال روسـي من جنرالات القيصر. وفوجئ ذات يوم وهـو يعمـل فـي الحديقة بزوجة الجنرال تضرب إحدى خادمات المنزل ضربا وحشيا فلم يتمالك جوركي نفسه وهجم على زوجة الجنـرال وضربها على مؤخرتها! وأنقذ الخادمة لكنه فصل من عمله. وضحك تولستوي حتى دمعت عيناه وقال لجوركي: إن لـك قلبا حكيما!

بهذه الحكمة التي في القلب كما هي فـي العقـل تشـهد عشرات وعشرات من صفحات كتاب فريدة النقاش.

وهي تحكي قصة هذا الثلاثي من نساء مصر في سـجن القناطر في مواجهة القضبان والمفتاح الثقيل الذي يدور كـل عصر في باب الزنزانة فيعلن عزلتهن النهائية لمدة أربعـة عشر ساعة متواصلة من كل يوم:

أليس من حقنا أن نقول مع الشاعر:

أجمل الأمهات التي عينها لا تنام

تظل تراقب نجما يحوم.

على جثة في الظلام.

لكن كتاب فريدة النقاش لا يقدم شهادة مناضلة مصـرية في السجن فحسب ولا هي تقدم مجرد الرسـائل الشـاعرية الرقيقة التي كانت تبعث بها إلى زوجها فـي سـجن طـره أو إلى ولديها جاسر ورشا في الخارج والتي عبرت بها عن أزمتها العاطفية لابتعادها عنهما وما يمكن أن يسببه هذا البعد والاعتقال لهما من أزمات نفسية كمـا عبـرت بهـا عـن صمودها الإنساني في وجه الظلم والقضبان.

كلا.. لقد قدمت فريدة أيضا في هذا الكتاب شـهادة فـذة عن الحياة الحقيقية في سجون مصر اليوم. وفي سجن النساء بالقناطر بالذات عن تريزا ونظيمة المصدورتين، عن السيدة "مزاج" تاجرة المخدرات، عن ليلى المطوة التـي احترفـت الدعارة، عن مأساة موت صفية التي ضبطت تمارس الجنس مع مسجونة صغيرة، عن مهندسـة الـديكور (ل.ح) التـي تزوجت الكويتي العجوز وعاشرت ابنه الشاب، عن مشروع الراقصة المجهضة (صابحة) التي تذكرنا شخصيتها بزوربا اليوناني في الرواية أو الفيلم، عن سلوى التي نشلت سـاعة

من إحدى تاجرات المخدرات عندما علمت أن ساعة فريـدة لا تعمل وقدمتها لها تحية ومودة.

في هذا العالم الغريب المليء بالسل والجرب والعـراك الليلي والإيقاعات الشعبية من عويل ورقص وغناء وزغاريد وطقوس ذات ملامح إفريقية تمشـي تـاجرات المخـدرات مرفوعات الرأس محصنات بما يملكن سـواء فـي خـارج السجن أو داخله، تحتقرن كل الجـرائم الأخـرى باسـتثناء السياسة لأنهن يعرفن من خبرتهن أن الانقسـام الاجتمـاعي الموجود في الخارج ممتد بشكل أكثر ضرواة إلـى داخـل السجن، وأن الفساد والرشوة اللتين بالخارج هما سلعة عادية ومقبولة بالداخل أيضا.. ومع هذا كله ثمة عديد من المواقف الإنسانية التي لم تخطئها عين فريدة الصحفية وقلب فريـدة الفنانة والتي لا يتسع الحديث عنها في مثل هذه العجالة.

وتعترف فريدة في النهاية أن كتابها هذا يبدو بلا ختـام.. كتابا مفتوحا قابلا أبدا.. للزيادة وليس للنقصان.. فمتى يختم مثل هذا الكتاب إذن؟

تقول فريدة: "عندما ينجح المد الديمقراطي فـي إسـقاط القوانين الاستثنائية وإلغاء حالة الطوارئ وإغلاق المعتقلات

السياسية إلى الأبد وصولا إلى اليوم الذي تنتزع فيه الجماهير الديمقراطية وتحرسها.

والي أن يأتي هذا اليوم ستظل مثل هذه الكتب مفتوحـة بلا ختام وستظل عيوننا أيضا مفتوحة بـلا أحـلام زائفـة أو أوهام".

حوار مع الدكتور عبد العظيم أنيس

ضم الدكتور عبد العظيم أنيس هذا الحوار إلى كتابه فهو يتضمن رأيه في اليسار ويعتز بهذا الرأي، وأراد أن يكـون في خاتمة الكتاب.

هناك لحظات في التاريخ تتميز بخلـط الأوراق وافتقـاد الرؤية، وتسود فيها العملة الرديئة، التي تطرد العملة الجيـدة من التعامل. ومثل هذه اللحظات تحتاج إلى العين الثاقبة التي تفرز الغث من الثمين وتحدد اتجاه البوصلة، وتقـيم حقيقـة الأدوار التي تطفو فوق السطح وتتسيد المشهد، ولعل الواقـع المصري في لحظته الهشة الراهنة – وبخاصة فـي الثقافـة والسياسة – هو أكبر مثال على هذا الخلط، ولعل هذا أيضـا هو ما دفعنا للحديث مع الدكتور عبد العظيم أنيس، فهو مـن العيون الثاقبة في وطن تحاصره الغشاوة، والـدكتور أنـيس غني عن التعريف فهو من أكبر مفكري اليسـار المصـري اتساقا مع النفس. وذات يوم قال الدكتور جلال أمين إن لفـظ مثقف لا ينطبق بحق إلا على قليل منهم عبد العظـيم أنـيس ليس لأنه عالم للرياضيات، ولا لأنه كاتـب وناقـد لـلأدب والفكر ولكن لأنه مهموم طوال الوقت بقضايا وطنه وأمته..

وفي هذا الحوار يرفض الدكتور أنيس أن نطلـق لفـظ "مثقف" على كثيرين يمتلكون معرفة عاليـة جـدا ولكـنهم يمشون بجوار الحائط.

في الحوار أيضا قضايا عديدة حـول الأزمـة الثقافيـة الراهنة ومؤتمر المثقفين المزمع عقده وعلاقة عبد الناصـر باليسار المصري وقصة انسحاب الدكتور أنيس فجـأة مـن الكتابة في جريدة "الوفد" وغيرها من القضايا.. لكننا آثرنا أن نبدأ بمعرفة رأيه فيما رواه الدكتور رفعت السـعيد الأمـين العام للتجمع بخصوص د. أنيس في كتابه "مجرد ذكريـات" الذي صدر أخيرا وفيه يـروي أن "بريمـاكوف" المراسـل السابق لجريدة "برافدا" السوفيتية اتصل به هو والأستاذ خالد محيي الدين موفدا من القيادة السـوفيتية وطلـب منهمـا أن يرفض حزب التجمـع الموافقـة علـى الاتفـاق الأردنـي الفلسطيني عام ١٩٨٤ حيث إن هذا الرفض الذي كان مطلبا للقيادة السوفيتية هو ما فعلتـه جميـع الأحـزاب اليسـارية العربية، وكان الاتفاق يقضي بضم جزء من فلسطين المحتلة إلى الأردن في دولة واحـدة.. ولكـن د. رفعـت السـعيد و أ. خالد محيي الدين قد قررا قبول الاتفاق لإبلاغ السوفييت

رسالة بأن التجمع لا يتلقى الأوامر مـنهم، إلا أن الـدكتور أنيس – حسب رواية د. رفعت – قـاد فريـق المعارضـة للاتفاق في اللجنة المركزية للتجمع بحجة أن جميع الأحزاب اليسارية العربية قد رفضته..

سألنا الدكتور أنيس ما حقيقة القصة؟

فقال: أولا هو حكى قصة غريبة جدا حول لقائـه هـو وخالد محيي الدين مع بريماكوف، هذه القصة لم أسمع بهـا نهائيا وقال إن الحجة التي استخدمتها في رفض هذا الاتفـاق هي أن الأحزاب العربية اليسارية أخذت موقفا من الاتفـاق فلماذا لا نأخذ نحن نفس الموقف وهذا غير صحيح لأن هـذه الحجة لم أستخدمها إلا في آخر الكلام، وأحب أن أوضح في البداية عدة نقاط.

أولا هو يدعي أنني قدت الحملة في اللجنة المركزيـة، ولعلمك أنا عمري ما دخلت قيادة التجمع أبدا لأنـي عنـدما أنشئ التجمع كنت أعمل في المعهد العربي للتخطيط بالكويت ورجعت إلى مصـر فـي ٣١ أغسـطس ١٩٨١ أي قبـل اعتقالات السادات بثلاثة أيام، وعلى هذا الأساس لم أكن في القيادة. وحين وصلت فاتحني بعض الأصدقاء أن أدخل قيادة

التجمع قلت لهم لا.. أنا مستعد للمساعدة فقط وحين أشـارك في القيادة أشارك من هذه المنطقة، حيث وجدت أن الموقف الذي حدث واعتقال الناس يستدعي أن أشارك وشاركت فعلا بكل قوة في اللجنة السياسية دون أن أكون عضوا.

هذا معناه أنك لم توقع استمارة عضوية؟

لم يحدث أبدا أن وقعت استمارة عضوية وكان لي وأنـا في الكويت تحفظات على التجمع، لكن الوضع الجديد الخاص باعتقالات الناس جعل من واجبي أن أشارك وظلـت هـذه المشاركة إلى أن حدث المؤتمر العام سـنة ١٩٨٤ والـذي كانت فيه واقعة الاتفاق الأردني الفلسطيني أو الخيار الأردني الفلسطيني، وفوجئت أن جدول أعمال المـؤتمر لا يتضـمن إدخال الاتفاق فيه لمناقشته فطالبـت بوضـعه فـي جـدول الأعمال. قالوا لابد أن يكون هناك عدد معين من الأعضـاء يطالبون بهذا المطلب، فجمعنا توقيعات ١٢٠ عضـوا مـن أعضاء المؤتمر فاضطروا لمناقشته، وكنت أنا شديد الانتقاد لعرفات والقيادة الفلسطينية في ذلك الوقت وشرحت الموقف والأسس المبدئية والسياسية التي أدعو فيها لرفض الاتفاق.

وما هذه الأسس؟

كان الاتفاق بين عرفات والحكومة الأردنية يقـوم علـى أساس أنه يمكن أن تنشأ كحل للقضية الفلسطينية دولة واحدة تضم جزءا من فلسطين والأردن، وهذا معناه أن قضية تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وإقامة دولة فلسطينية تكون قـد انتهت ونعود للوضع القديم الذي كانت فيه الضـفة الغربيـة تابعة للأردن، واستمر الكلام في المؤتمر في الصباح وكلمتي استقبلت استقبالا حافلا إلى أن رفعت الجلسة للغداء، وفوجئت بأن جاءني الدكتور إبراهيم سعد الدين وقال لـي: إن خالـد محيي الدين يقول إذا صوتت الأغلبية لصالح وجهة نظـرك فإنه سيستقيل من رئاسة التجمع ويقترح أن تعين بدلا منـه، قلت له أنا غير مستعد إطلاقا لذلك، وإذا كان هـذا أسـلوب للضغط لكي نسحب القرار فنحن لا نسـتطيع الآن أن نفعـل ذلك. وعندما جاء وقت التصويت علـى القـرار، لاحظـت حركة غريبة من الأعضاء المتعاطفين مع وجهـة نظـري، ويبدو أن مسألة تهديد خالد بالاستقالة أخافتهم فبدءوا الاتصال بزملائهم وإعطائهم تعليمات لكي يصوتوا ضـد القـرار أي يصوتوا ضد رفض الاتفاق حتى لا يأخذ القرار أغلبية فـي المؤتمر. وتم هذا فعلا وفوجئت بورقة أخرى وقع عليها ٥٠

عضوا من أعضاء التجمع بترشيح الدكتور عبد العظيم أنيس للمشاركة في القيادة ووقف خالد محيي الدين وقال نحن نناشد الدكتور عبد العظيم. قلت أنا معتذر ولا أريد أن أدخل فـي القيادة لأني غير مستعد وفعلا تمت الانتخابات دون أن أكون موجودا فيها.

لماذا لم تدخل في القيادة؟

لأني لم أشعر بأي جدية في هذه القيادة وكنت أعتبـر أن وجهة نظري التي شرحتها بخصوص الاتفاق قضية أساسية لكن الاتصالات الجانبية التي حـدثت خوفـا مـن التهديـد بالاستقالة غيرت القرار، ثم إنني لم أقل أن الأحزاب العربية اليسارية كلها رفضت الاتفاق إلا في آخر الكـلام أي بعـد شرح وجهة النظر المبدئية والسياسية.

إذا لم يكن السبب لموافقة قيادة التجمع على الاتفاق هـو إعطاء درس للسوفيت كما يقول الدكتور رفعت فما السـبب الحقيقي إذن؟

السبب الحقيقي هو ما قيل في المؤتمر فعلا. قالوا إحنـا مع القيادة الفلسطينية وما توافق عليه نوافق عليه، وأنا كـان رأيي أن هذه ليست قضية خاصة بأندونيسيا فالصراع العربي

الإسرائيلي يخص العرب جميعا وليس القيادة الفلسطينية فقط ويهمنا جميعا، ونحن في مصر دخلنا في حروب مع إسرائيل وقدمنا شهداء وبالتالي فمستقبلنا مرتبط بهذا الصراع وعلـى هذا الأساس فلا نستطيع أن نسلم رقبتنا للقيادة الفلسطينية إذا وافقت على شيء لابد أن نوافق.

هل كانت هناك مواقف مماثلة اتخذتها القيادة؟

مثلا اتفاق أوسلو لم يعارضوه بينما عارضته كل أحزاب المعارضة المصرية والعربية وعارضه الشعب الفلسـطيني نفسه بينما لم يأخذوا موقفا واضحا في هذا الموضوع، أكثـر من ذلك كلما كتبت مقالا في "الأهالي" عن القضية الفلسطينية أيام حسين عبد الرازق وكان متعاطفا معي، كـان عرفـات يحتج على المقال عند خالد محيي الدين وكان حساسا أكثـر من اللازم، لكنهم في موضوع كوبنهاجن لـم يسـتطيعوا أن يأخذوا موقفا مؤيدا، وجدوا أن المسألة ستكون فجة وتركـوا لطفي الخولي يتصرف براحته وكان ينتظر تأييد القيادة لكنها لم تؤيده فاستقال، لكنهم في نفس الوقت لم يكن موقفهم مـن مسألة كوبنهاجن بالقوة الواجبة، وفي كل الأحوال فقد كنـت أشعر أن قيادة التجمع منذ المؤتمر الذي ذكرناه إلى الآن أنها

هي ومنظمة التحرير جبهة واحدة لا يختلفان في أي شيء.. وجاء وقت أنه من الأفضل ألا أكون موجودا فـي التجمـع فقاطعت اجتماعاته لكنني لم أكتب استقالة لأننـي لـم أكـن عضوا فيه أصلا.

هذا معناه أنك لم تلتق مع بريماكوف ولم يتصل بك؟.

عمري ما شوفت بريماكوف ولا أعرفه خالص. وحتـى عندما كان مراسلا لجريدة برافدا في مصر لم ألتق بـه، وإذا كانوا يقولون إنهم اتخذوا هذا الموقف لكـي يكـون رسـالة للسوفييت مضمونها أنهم لا يسمعون كلامهـم. الموضـوع لا يمكن حسابه بهذه الطريقة، فإذا كان هنـاك خطـأ فـي الموقف الروسي كان يجب كشف هذا الخطأ، وهل إذا اتخذوا موقفا ضد الاتفاق سيكون هذا معناه أنهـم مـع السـوفييت، الناصريون مثلا كانوا ضد الاتفاق فهل هذا معناه أنـه مـع السوفييت، أنا رأيي أن المواقف السياسية لا ينبغي أن تؤخـذ على هذا الأساس، فالمواقف الصحيحة تؤخـذ علـى أسـس مبدئية محترمة بصرف النظر عن أنها من السـوفييت أم لا. ببساطة الاتفاق الأردني الفلسطيني كان معناه في وقتها إلغاء

حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني وإقامة دولته المسـتقلة فرفضته..

لاحظ الناس أنك بدأت تكتب مقالا أسبوعيا فـي "الوفـد" وبعد مدة قليلة امتنعت فجأة عن الكتابة فلماذا؟

أنا لم أسع للكتابة في الوفد وإنما هم الذين سعوا لأكتـب عندهم. وكان ذلك في إطار تغييـر شـكل الصـحيفة بعـد الانتخابات الأخيرة، فقد استقروا لاستكتاب عدد من الكتـاب من خارج الوفد يمثلون اليمين واليسار والوسـط، وفوجئـت باتصال رئيس التحرير بي وقال لي وقـع عليـك الاختيـار كممثل لليسار ونريدك أن تكتب مقالا أسبوعيا كل يوم سبت فطلبت منه مهلة للتفكير ثم وافقت، وكتبت المقال الأول عن ذكرياتي مع التيار اليساري في الوفد والطليعة الوفدية، فأنـا نشأت في عائلة وفدية وكان أخي إبـراهيم شـاعرا وكـان يخطب أمام سعد زغلول، المهم كانوا سعداء بهـذا المقـال باعتباره مقالا عن ذكريات جميلة، وأرسلت المقـال الثـاني فنشروه في موعده وفي المقال الثالـث فوجئـت أنهـم لـم ينشروه، وظهر مكانه مقـال عـن مسلسـل "أوان الـورد"

لصافيناز كاظم اتصلت برئيس التحرير في المكتـب وفـي البيت وعلى المحمول فتهرب مني لمدة ٤ أيام.

ما موضوع المقال ولماذا لم ينشر؟

كان عن حقيقة أوضاعنا الاقتصادية، وأنـا دائمـا فـي مقالاتي أقسمها إلى موضوع رئيسـي وموضـوع جـانبي؛ الموضوع الرئيسي كان عن حقيقة أوضـاعنا الاقتصـادية والجزء الجانبي كان عن عـودة المفاوضـات الفلسـطينية الإسرائيلية، وكنت بالطبع ضد عودة المفاوضات لأن عودتها لا تخدم سوى كلينتون الذي يريد قبل خروجه مـن البيـت الأبيض أن يفعل شيئا يكتب له في التـاريخ بعـد فضـيحة مونيكا ويريد أن يحصل على جائزة نوبل، ومفهـوم أيضـا موقف باراك أن الذي يدخل انتخابات جديدة، ويريد أن يظهر بمظهر رجل سلام، وقلت : إن هناك إجماعا من جميع القوى الوطنية والإسلامية بما في ذلك منظمة فـتح ضـد عـودة المفاوضات وداعين لإضراب عام لترك هـذه المفاوضـات وقلت إن ما لم أفهمه هو موقف عرفات والحكام العرب الذين يساندونه وأظن أن هذا هو السبب في عدم نشر المقال.

لكن المقال نشر بعد ذلك فلماذا تظن هذا الظن؟

المقال نشر بعد موعده بأسبوع وبعد أن اتصل بهم عـدد من الناس وسألوهم لماذا لم يظهر مقالي، ونشر المقال بعـد أسبوع من موعده أفقده قيمته لأن الأحداث سارت في مسار آخر وأصبح مثل الكلام البايت، وأنا أخمن أن السبب في عدم نشره هو الجزء الخاص بالمفاوضات لأنهم ينشرون كلامـا كثيرا عن المشاكل الاقتصادية لكن يبدو أن الكلام في القضية الفلسطينية يتعاملون معه بحساسية فهناك تصـريح لنعمـان جمعة قال فيه نحن لا نزايد على الرئيس مبارك في موضوع فلسطين، بعد ذلك اتصل بي رئيس التحريـر وبـرر عـدم اتصاله السابق بكثرة مشاغله في الجريـدة وقـال إن عـدد الكتاب كبير لهذا سوف يجعلون الناس تكتب كل أسـبوعين فاعتذرت.

ننتقل من السياسة إلى الثقافة، وهناك طبعا الأزمة التـي وقعت في وزارة الثقافة بسبب الروايات التي تتضمن مشاهد جنسية وعزل علي أبو شادي من رئاسة هيئة قصور الثقافـة واعتراض المثقفين.. ما رأيك؟

نحن أصدرنا بيانا عندما وقع عزل علـي أبـو شـادي وكشيك وأبو العلا واعتبرنا أن هذا بمثابة عمل هجومي ضد

تيار متقدم داخل وزارة الثقافة من أجل القضاء عليه نهائيا وأن الوزير بهذا العمل يحاول أن يلبس عمامة شيخ الأزهر، وكان عدد كبير من المثقفين قد اتصلوا بي وقالوا: إن لديهم بيانا يتضمن هذا الأمور وطلبوا توقيعي قلت أوقع، ونحن رفضنا التعامل مع وزارة الثقافة خصوصا في موضوع المشاركة في أنشطة معرض الكتاب.

ما رأيك فيما قيل عن الروايات؟

أنا لم أقرأها، ولكن قيل: إنها تتضمن تلميحات جنسية، ومع ذلك فالأدب له قواعد وأصول تختلف عن الكتابة الأخرى، فإذا كانت هناك مثل هذه التلميحات فينبغي أن ينظر للموضوع بمنظور الإبداع الفني وليس بمنظور الإثارة الجنسية، ثانيا هناك قصص وروايات كثيرة فيها مثل هذه الأشياء مثل قصص إحسان عبد القدوس وغيره لدرجة أن أحد الناشرين لقصص إحسان قام بتغييرات فيها وحذف المشاهد الجنسية فرفع ابنه قضية ضد الناشر لأنه ليس من حقه أن يغير فيها، وقصص نجيب محفوظ الأولى فيها تلميحات جنسية، والحقيقة أن هناك تقييمات مختلفة للروايات التي أثارت الأزمة، على سبيل المثال كتب إدوارد الخراط

مقالا عن رواية "قبل وبعد" في "أخبار الأدب" طلعها السـما، وإدوارد الخراط ليس أديبا بسيطا، في العـدد الأخيـر مـن "العربي" كتب فتحي عامر أن الروايات تافهة لكنه قال: أنـه غير موافق على المصادرة ، يعني هناك تقييمـات مختلفـة لذلك فأنا رأيي أن عملية المصادرة عملية خطرة جدا مهمـا كان فيه من تلميحات جنسية لأن الرواية لا يطبع منها أكثـر من ٣ آلاف نسخة ولا يقرؤها أكثر من ٣٠٠ أو ٥٠٠ مـن ٦٥ مليونا وإذا كان هناك خطأ فلا شك من ضرورة إصلاحه بأن تكون هناك لجان قراءة محايدة وممثلة لكل الاتجاهـات الفنية، ثم لماذا كان الوزير ساكتا كـل هـذا الوقـت علـى موضوع لجان القراءة ويأتي بعد ذلك ليقول: إنه كان معتمدا على علي أبو شادي لكي يكون رقيبا على الإبداع، رأيي أن الحل ليس في إقصاء هذه القيادات التي تمثل اتجاها متقـدما في الوزارة..

هل تعتقد أن السبب الرئيسي لتصفية هذه القيـادات هـو موضوع الروايات فقط؟

من الواضح أن الوزير وقع في حالة فزع عنـدما تقـدم بعض رموز الإخوان في مجلس الشعب بطلـب الإحاطـة،

وكان قد سبق أن هوجم في موضوعات كثيرة جعلته يشـعر أن على رأسه ١٠٠ بطحة منها موضوع الآثار وموضـوع احتفاله بالألفية وإنفاقه الملايين عليها ومعروف أنه كلف بها ميشيل جار وأنا مؤيد لنقد الوزير في هذا الموضوع .

ما رأيك في أن تقيم وزارة الثقافة مؤتمرا للمثقفين دعـي إليه الأستاذ محمود أمين العالم كما يقول الوزير، بالمناسبة ما رأيك أيضا في مشاركة الأستاذ العالم في أنشطة الوزارة؟

الأستاذ العالم له وجهة نظر وحـدها تمامـا فـي هـذه المشاركة، حتى لو لم نكن نتفق معه حول موضوع تعاونـه مع وزارة الثقافة أظن أنه يعبر عن هذا الموضوع بقوله: إنه يتعامل مع الدولة المصرية وأنا لا أرى فرقـا بـين الدولـة المصرية ونظام الحكم. وأنا طبعا أحترم رأيه لكن لي موقفـا مختلفا في هذا الموضوع فهو يرأس لجنة الفلسفة في المجلس الأعلى للثقافة وأنا لم أقبل نهائيا أن أدخل لجنة الثقافة العلمية في المجلس واعتذرت.

وماذا عن مؤتمر المثقفين؟

مؤتمر المثقفين خطر من الأساس أن تتبناه وزارة الثقافة، أنا لا أعترض على مؤتمر للمثقفين ولكن اعتراضـي علـى

تبني وزارة الثقافة له، ووزارة الثقافة هيئة حكومية وعلـى هذا الأساس فالمؤتمر معرض لأن يكون ركيزة لدعم النظام، لأن المثقف ما هو؟ المثقف ليس المتخصص في علـم مـن العلوم مثل الكيمياء أو التاريخ، المثقف هو الإنسان المهمـوم بشئون البلد ولديه الثقافة العامة وليست كل الناس التي لـديها معرفة أو تخصص مهمومة بشئون البلد، وهنـاك كثيـرون لديهم معارف واسعة ولكنهم يسيرون بجوار الحـائط لهـذا فهؤلاء غير مثقفين، والمثقف لابد أن يكـون مسـتقلا عـن الدولة ونظام الحكم لكي يكون مثقفا بالمعنى الحقيقي.

إذن ما تصورك لمؤتمر المثقفين البديل؟

مؤتمر المثقفين يجب أن تنظمه هيئة شعبية مستقلة عـن وزارة الثقافة وممثلة لكـل الاتجاهـات الفكريـة والثقافيـة المختلفة يعني لابد أن يكون فيه الناصـريون واليسـاريون والليبراليون والاتجاهات الدينية المستنيرة والقـوى الوطنيـة على أن يكون مؤتمرا للمثقفين المصريين والعرب وتوجد فيه كل القوى الوطنية التي ترى أهمية التصدي لإسرائيل. أمـا فكرة أن يحتضن وزير الثقافة هذا المؤتمر فسوف يتحول إلى تأييد للنظام وهذا غير المطلوب طبعا، إذن لابد من وجـود

لجنة شعبية مستقلة للقيام بهذا المؤتمر ثم يـأتي بعـد ذلـك مؤتمر للثقافة العربية يشارك فيه المثقفون العرب لأن الثقافة بمعناها العميق مفروض أن تكون أساسا لكل العمل الـوطني وأنا رأيي أن النقطة الأساسية في مؤتمر مستقل للمثقفين هي التأكيد على هويتنا القومية كعرب ومناضلين ضد الإمبريالية وضد إسرائيل والصهيونية وسوف يكون لهذا المؤتمر مهمة أساسية وهي تشجيع قوى أخرى حينما يرون تحرك المثقفين فيتحركون لأن من أكبر المشكلات التي نعـيش فيهـا هـي إصرار النظام على أن يحكم بالأحكام العرفية منذ عـام ٨١ حتى الآن وليس صـحيحا أن قـانون الطـوارئ لا يطبـق إلا على تجار المخدرات والدليل ما حدث لطـلاب الأزهـر وإصرار النظام على الحكم بالأحكام العرفية يأتي من شعوره أنه لا يستطيع أن يحكم إلا بالبطش ولهذا فهناك قوى كثيـرة مترددة وعندما يتحرك المثقفون من خلال مؤتمرهم سـوف يتحركون.

لكن هناك أزمة في المثقفين أنفسهم؟

الأزمة سببها افتقاد الحرية، فالمثقفون غير قادرين علـى التجمع في ظل الأوضاع الحالية، ولعل فكرة الدعوة لمؤتمر

المثقفين المستقل أن تكون بداية للخروج من هـذا المـأزق، هناك مشكلة أخرى وهي أنه ليس كـل المثقفـين مسـتعدين للدخول في مخاطر العمل الوطني.

ما قصة رئاستك لدار الكاتب العربي التي أصبح اسـمها الآن الهيئة المصرية للكتاب؟

أنا كنت رئيسا لدار الكاتب من نوفمبر ١٩٦٧ ولمدة عام وبدأ هذا الموضوع عندما تلقيت مكالمة من وزيـر الثقافـة ثروت عكاشة، وكنت ألقي محاضرة على طلابي في الجامعة ودخل علي فراش أثناء المحاضرة وقال لي وزيـر الثقافـة على التليفون قلت له سأكلمه بعد انتهاء المحاضرة وكلمتـه. فقال لي أريدك أن تأتي إلى الوزارة اليوم السـاعة الثانيـة للحديث في موضوع مهم وعندما تأتي ستعرفه، وذهبت فـي الموعد فقال أنا كنت عند الرئيس عبد الناصر وكنا نتكلم في تعيينات في وزارة الثقافة، وكان يرأس الدار في هذا الوقـت محمود أمين العالم، وكان علي الراعـي يـرأس مؤسسـة المسرح فحدث خلاف بينه وبين الوزير وخرج علي الراعي من مؤسسة المسرح ونقلوا العالم من دار الكاتـب العربـي إليها. ويبدو أنهم سألوا محمود أمين العالم: من الذي يتـولى

بعدك فاقترح اسمي. الوزير قال لي: إنه كـان يـتكلم مـع عبد الناصر حول التعيينات فقال لهم خذوا فلانا وأنا تقديري أن اسمي عرض على الرئيس فلم يعترض. قلت للوزير أنـا غير متحمس لترك عملي في الجامعة فقال هذه هي توجيهات الرئيس. قلت له إذا كان الموضوع كذلك فلأذهب إلى رئاسة الدار معارا من الجامعة فوافق، كانت هناك مشـاكل ماليـة كبيرة فذهبت إلى نزيه ضيف وزير الخزانة وحصلت منـه على قرض بحوالي ٦٥٠ ألف جنيه لحلها.

هل كان هناك تدخل من النظام أو من عبد الناصر لنشر كتب بعينها أو رفض كتب أخرى؟

لا.. لا.. هذا لم يحدث إطلاقا..

هل منع كتاب من النشر؟

أنا لم أسمع أن كتابا منع من النشر، لكن ما سمعناه أيامها أن رواية نجيب محفوظ "أولاد حارتنا" كانـت تنشـر فـي الأهرام فتدخل الغزالي لمنعها لأن فيها إشارات للأنبياء ولله وقال عبد الناصر تستمر في نشرها مسلسلة في الأهرام لكن لا داعي لإصدارها في كتاب الآن.

هل كان مسموحا بإصدار كتب تنتقد النظام.

الفترة التي جاءت بعد ١٩٦٧ كانت من أكثر الفترات في حرية الكتاب بدليل أن رواية ثروت أباظة "شيء من الخوف" وكانت تنتقـد النظـام بشـدة نشـرت، وبـدليل روايـات أو مسرحيات عبد الرحمن الشرقاوي وكانت كلها تلقيحا على النظام كانت تنشر وكان الشرقاوي معاديـا للنظـام بسـبب موضوع أخيه عبد المنعم.

إذا ما الذي بقي من فكر عبد الناصر؟

بقيت أشياء كثيرة جدا سيظل بسببها عبد الناصر محـلا للهجوم من القوى الرجعية في العالم العربي والتي لا تهـتم بقضية الصراع العربي الإسرائيلي فعبد الناصر هو العـدو الرئيسي لهذه القوى في هذا الموضوع بقى عبد الناصر الذي أمم القناة وتصدى للعدوان الثلاثي وعمل مـؤتمر باندونج وآمن بالوحدة العربية ومن ضمن الأشياء التي لابد أن تذكر لعبد الناصر اهتمامه بشكل واضح برعاية الطبقات الشـعبية ولا شك في أن الشعب المصري تحسنت أحواله الاجتماعيـة في عهد عبد الناصر وعما كان قبلـه وأن أحـوال الشـعب المصري ساءت كثيرا بعـد وفـاة عبـد الناصـر ويـذكر لعبد الناصر أنه كان زعيما وطنيا بمعنى الكلمة ويـذكر لـه

الإصلاح الزراعي وتمصير البنوك والشركات والتأميمـات التي تمت وأن مصر لم ترفع رأسها يوم من الأيـام مثلمـا رفعتها في عهد عبد الناصر، كل هذا حقيقي وكل هذا – من ناحية ثانية – لا يمكن أن ينسينا أن العودة الوحيدة للنظام هي قضية الديمقراطية وقضية الديمقراطية تمت معالجتها بشـكل سلطوي لم تكن هناك ضرورة ماسة لها ولـم تكـن هنـاك ضرورة ماسة للسجون والمعتقلات وإعدام خميس والبقـري كما أن عبد الناصر أخطأ في حساباته في موضوع الوحـدة مع سوريا عندما اعتمد على عبد الحكيم عامر فـي سـوريا وهذا أدى إلى مشاكل كثيرة بدليل أن قادة الانقـلاب علـى الوحدة كانوا من الضباط السوريين في مكتب المشير.

بالنسبة لإعدام خميس والبقري عبد الناصر كان رافضـا هذا الموضوع، لكن بالنسبة للوحدة ألا تـرى أن الأحـزاب الشيوعية أخطأت في تقديرها للوحدة في ذلك الوقت؟

أنا رأيي أن الأحزاب الشيوعية أخطأت أيضا في مسـألة الوحدة عندما تصورت أن تفاهم عبد الناصر المؤقـت مـع الأمريكان أيام الأزمة بينه وبين خورشوف هو تفاهم أبـدي وهذا أثر على تقديرات الشيوعيين لأن الأحـداث أثبتـت أن

تفاهم عبد الناصر مع الأمريكان كان مؤقتا واختلف معهم بعد ذلك.

قلت أن القوى الرجعية ستظل دائما فـي صـراع ضـد عبد الناصر؟

هذا صحيح بدليل أنني وصلتني أمس رسالة من السعودية مجهولة التوقيع ومكتوبة على الآلة الكاتبة كلها هجوم وسباب في عبد الناصر وللتضليل وضعوها في ظرف بمبي كأنهـا جواب غرامي رغم أنهم لم يخطئوا العنوان، يقول صـاحب الرسالة: يا أخي أنا مجنون منك، أنت لم تضطهد في حياتك كما اضطهدت في عصر عبد الناصر، ومع ذلك لا يوجد من يدافع هذا الدفاع المجيد عنه مثلك، قلت لنفسي هذا صـحيح والسبب أنني لا أحكم على المرحلة الناصرية بدلالة ما حدث لي وحدي ولكن بدلالة ما حدث للشعب كله ورأيـي أنـه إذا كان الإنسان سياسيا مسئولا لابد أن يكون هذا هـو موقفـه لا أن يقول فقط إنه كان يسير حافيا في معتقلات عبد الناصر وإن.. وإن.. وإن كان كل هذا صحيحا ولابد أن يعرف.

ننتقل إلى موضوع التعليم خصوصا وأنك أستاذ جـامعي ولك رأي فيما يحدث في التعليم الآن؟

الفكرة الأساسية التي لابد أن تقال الآن هـي أن مصـر غير مستعدة للإنفاق على التعليم بالطريقة التي تجعل مستواه جيدا.. هم يقولون إن ميزانية التعليم زادت من ٤ مليـارات إلى ١١ مليار جنيه وينسون السنة التي كان ينفق فيها علـى التعليم ٤ مليارات وخلال هذه الفترة كم مرة زاد فيها عـدد السكان وكم مرة انخفضت قيمة العملـة بسـبب التضـخم، المعيار الحقيقي أن نرى ما ينفق علـى الطالـب بالأسـعار الثابتة .. الوزير قال ما ينفق على الطالب ٧٥ جنيهـا فـي العام بينما يصل الإنفاق على الطالـب ٢٧٠٠ جنيـه فـي الخارج وفي إسرائيل، المشكلة إذن هـي مشـكلة تمويـل، وعندما حضر عاطف عبيد اللجنة التحضيرية لمؤتمر التعليم الثانوي قال هذا بشكل واضح وقال نحن بحاجة إلـى بنـاء ١٢٧ ألف مدرسة خلال السنوات العشر المقبلة ومـا بنـاه حسين كامل بهاء الدين لا يزيد على ألف مدرسة، والتفكيـر القائم عندهم لحل مشكلة التمويل هو عمل مـدارس متميـزة بمصروفات زائدة لجمع أموال من أوليـاء الأمـور لبنـاء مدارس جديدة، وفي المؤتمر وقف أستاذ من جامعة حلـوان وقال هذه الطريقة ستؤدي إلى شرخ في المجتمع المصـري

أنا رديت وقلت الشرخ حدث فعلا.. لذلك أنا رأيي أنه رغـم الجهود التي بذلها بهاء الدين لم يكن من الممكن أن ينجح في حل مشاكل التعليم.

لماذا؟

لأنه بسبب ظروف الانفتاح وجدت المـدارس الخاصـة التي لم تكن موجودة في مصر من قبل مثل ما هي موجـودة الآن ووجدت المدارس الأجنبية والدروس الخصوصية التـي انتشرت بكثرة وهذه الأمور كلها أدت إلى فشل مشـروعات حسين كمال بهاء الدين بينما نجح الانفتاح.